

صـــورة المؤلـــف

محمد المختار السوسي

حول مائدة الغداء

المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

حول مائدة الغداء

مقدمة :

الحمد لله على كل حال ، والصلاة والسلام على سيد الرجال ، أما بعد فيا عجبا كيف تنتقلب الاحوال بالانسان ويمد به موج القدر ويجزر فآونه أفراح واتصال حتى لا أفق الا ويقطر غضارة وبشرا كجو فصل الربيع ، وأحيانا احزان واغتراب وانقطاع عن كل خليل حتى لا يكاد الطرف يمتد وراء ملتقى الاجفان ، وقد اكفهر أمامه الجو فاكتسى ما يكتسي به فصل الشتاء عن امتداد الغيم في المساء .

فاليوم ها نحن اولاء بـ (الغ) في غم وبين وانقطاع عن كل احد حتى عن الاخبار التي تبرد بعض الغلة ، وأمس كنا في (الحمراء) بين مسرات تستمتع منها الحواس كلها بما تستمتع ، فبين محافل علمية ، ومجالس اخوية ، وللوصل مع كل فوج من أفواج الاخوان وقت محدود ، فالاخوان المذاكرون لمجالس العلم ، والشاعران البونعماني والروداني والعلامة ابرهيم بن أحمد الالغي للمؤانسة والمفاكهة النزيهة ، ومولاي عبد الله وعبد القادر وأحمد شوقي ومولاي احمد النور من ادباء النشء لمبادلة افكار طريفة كما تفتحت لها افكارهم الشهية ، والملاخ ومولاي أحمد المنجرة والعربي بنيس للاخوة الصافية ، والفقهاء الاساتذة عبد القادر المسفيوي وعبد الجليل ابن القزيز وأحمد بن الفضيل ومحمد بن عبد الرزاق وسيدي بريك ومحمد بن عثمان الاعلى من ذلك ، وقد خصصت لهم ساعات يوم الخميس في أوقات الغداء الذي نتداوله بيننا بالنوبة ، والباشا ادريس منو الكريم لوقت الغداء في كل يوم ،

فكنت كما استفيد مـن كل اولئك الاخوان مـن العلم ومن الفكر ومن المحادثة
والمفاكهة ، أستفيد من الباشا استفادة اخرى وراء ذلك تتعلق باحوال الحكومة
التي طوى ثوبها بالاحتلال ، فقد كان درج من دار السلطان المقدس مـولاي
الحسن ، وتربى بيـن اولاده ومعهم في قبيلة (حمر) يقـرأ من صغره ، ثم كان
قرين المولى عبد الحفيظ من ذلك العهد ، الى ان فرقت بينهما عوادي الدهر سنة
1330 هـ ، فكان تاريخا حيا يجمع من الحقائق ما لا يوجد في غيره ، وقد كانت
تمر لنا معه ساعات كل نهار لذيذة حول المائدة ، فكنت دائما أعزم ان أقيد عنه
ما يقول ، ولكني أسوف لكثرة الاشغال التي كنت اعانيها ، حتى انني قلما اجد
فراغا ، ثم لم اجد الفراغ الذي اريد حتى حيل بيني وبينه ، فملت على بنانـي
أعضه ندما على ما اضعته مما عنده لتاريخ (المغرب) للاجيال المقبلة ، وقد كنت
في صيف 1355 هـ صممت على ان أقيـد عنه مع ما أنا فيه من اشغال متراكمة ،
فقيدت عنه جلستين صغيرتين ، ثـم حملني ما أنا فيه على التسويف أيضا ،
ثم كان ما كان من هذا النفي قريبا ، وكان هو نفسه يقول انك لو صممت لكانت
الفائدة فيما تكتبه عظيمة ، وانني اليوم لآسف على ما ضيعت ، والامر لله .

(وبعد) فقـد نويت ان أستلحق اليوم ما يمكن مما بقي متصـلا بالذاكرة
على ضعف ذاكرتي ، فأقيد ما يمكن تقييده مما تثبت فيه ، وان كان غالب مـا
أتذكـره مفلتا من تعيين اسماء الرجـال ، لانني لا استحضرها الآن كما كـان
الموضوع يعدم كثيرا من التفاصيل كما هي ، وقد اجتهدت على تقييد كـل ما
لا ازال اتذكره ، وذلك عـلى كل حال اليوم افضـل من الاعراض الكلي ، خوف
ان يجيء الغد – لا قدر الله – بما يجعلنا ثانيا نبكي معه على تضييع ما يمكـن
اليوم على قلته بجانب ما كان يمكن ان يضمه امس ، فنندم ثانيا ، وقد علمنا
الدهر كيف نبادر الـى جني ما يسنح ، ولو لم يكـن ناضجا كل النضج ، والا
بقينا بلا ثمر أصلا ، كيفما كان ناضجا او غير ناضج .

انني احاول بما في جهد مستطاعي ان اكتب ما عندي حاكيا عنه ، وناسبا
اليه كل ما عسى ان لا يكون موافقا للحقائـق الثابتة عند المؤرخين الآخرين ،
ومتقيا عليه تبعته ، على انه فيما كان يزاوله او كان رآه بعينه يقدم عـلى غيره
مـن المؤرخين كابن زيدان الاستاذ الجليـل مؤرخ الدولة ، والمحافظ على ذكـر
الايام الاخيرة بتتبع في تاريخه عن (مكناس) ، فانه وان كان من اعـلى مفاخر
(المغرب) وسيد مؤرخيه ومـن اكبر المتثبتين ، لا يسلم من ان يتلقى عن غيـره
فيكتب ما كان اخذه كما اخذه ، فان كان الباشا هو حضر لما كان كتبه ابـن

زيدان حكاية عن غيره ، ثم خالفه فيه ، فانه اولى بان يؤخذ بكلامه ، مع العذر الواضح لابن زيدان ، واما ما لم يحضر له الباشا فان ما يذكره ابن زيدان نراه مقدما على ما يذكره الباشا ، لانه ما دام السمع هو سبيل معرفتهما معا ، فان من يتصدى لتحقيق المسائل وتتبعها كمؤرخ ، أولى بان يتلقى قبوله ، وذلك ظاهر بين ، ذكرت هذا لانني كنت اسمع من الباشا كثيرا ، أن ما يذكره ابن زيدان في قضية كذا ، ذهول من حكى له ، والا فهي كذا وكذا ، فيذكر انه حضرها كما حضر غيرها ، ولو كنا الآن نكتب عنه ، ونقابل ما بين كلاميهما لا تضح كثير مما ينسبه لرواة ابن زيدان من الذهول ، وقد كنت ذكرت مثل هذا لمؤرخنا العلامة ابن زيدان ، فحثني اذ ذاك على ان اكتب عنه ما يقول ، ولكنني بكل أسف فرطت فأرسل اليوم أسفا حارا على تفريطي .

كيف عرفت الباشا ؟

في سنة 1349 هـ ، في وسط هاجرة تلظت فيها حمارة قيظ (الحمراء) المعلوم ، كنت فرغت من الدروس قبل الثانية عشرة ، فتفرق الطلبة ، فولجت الى بيتي،وكنت في ذلك الحين أتنكب ما أمكنني الخروج من الزاوية بـ (الرميلة) غالبا الا لداع خاص ضروري ، لان (مراكش) اذ ذاك قد أقامها وأقعدها الاخ النهامي المعروفي الرباطي بالدعاية الحارة لاعلان اللطيف ضد الظهير البربري، وقد ماجت به امواج (الرباط) و (سلا) و (فاس) وغيرها من الحواضر ، فكان هو وحده في (مراكش) شاعرا بما يشعر به اخوانه الشباب ازاء اعلان ذلك الظهير البربري الجائر ، فألقى ظهريا ما كانت تقتضيه وظيفته - لانه مستخدم ككاتب يتصفح الرسوم او ينسخها في المحافظة - من الوقوف جانبا ، فغامر مغامرة غريبة،فصار يذهب الى أسواق القيساريات ، فيبث الدعاية بالكيفيةالتي يراها مؤثرة ، ولم يكن الا ايام قليلة حتى قف الشعر من الناس وعزموا على فعل ما فعله اخوانهم من أهل الحواضر ، ثم ارسلت اليه ادارة الشرطة ، فالزمته بالخروج في الحين من (الحمراء) ، وقد كان جاء الي قبل ان يقوم بذلك لانني انا الذي شجعته ، فلما امر بمغادرة (مراكش) جاء الي بسرعة بكثير من حاجه ، ثم سافر في الحين ، وفي اثناء هذا ، والعيون تحوم حولي لما لي مع

المذكور من الاتصال الدراسي ، لانه يأخذ عني بعض الدروس ، ويوافقني وقد كنا اتفقنا معا على ان يقوم هو بذلك الدور ، كما اتفقنا مع الاخ العربي بنبيس على ان يفرق مناشير في الموضوع ، ففرقها سحر يوم فملأ بها المساجد وقباب الصالحين ، ثم حل ذلك اليوم الذي نحن في وصفه ، فدخل الزاوية رجلان حضريان،احدهما بجبة عادية لعلني كنت اراه قبل ذلك اليوم (وهو السيد عبدالله بن سيدي عمر السرغيني امام المسجد الكبير بـ (باب دكالة) الراتب فيه) ومعه آخر عليه جبة رفيعة ، وفوق رأسه طربوش قائم نظيف ، ولم يسلم علي الا الاول فقط ، فقال لي بصيغة الامر : اجب الباشا ادريس منو ، فقلت له من ادريس هذا ؟ – ولم أكن سمعت به من قبل – فقال انه قائد من قواد المخزن ، لم يكن مستخدما اليوم ، فخرجت فمشى صاحب الجبة العليا امامي من غير ان يسلم علي ، ولا ان يكلمني ، وهو شبه مطرق ، كأن في وجهه عبوسا كما يتراءى لي اذ ذاك تخيلا فقط ، فدخلنا (درب الدقاق) في حومتنا بـ (باب دكالة) ثم دخلنا دارا في أسطوانها بواب اسود جالس ، فأمرت بالجلوس ، وقد قدم لي ما أجلس عليه ، فقال من جاء معي للبواب : أجاء ذلك النصراني ؟ فقال له لا ، ثم دخل الرجل الى الدار فاذ ذاك ساورتني وساوس كثيرة نبتت مما كان يحوم في نفسي في تلك الايام ، فقلت يؤتى لي ان الحكومة اوعزت الى هذا القائد ان يستخبرني مع هذا النصراني ، وما هذا الذي رأيته من هذا الرجل الذي جاء معي من عدم الاهتبال بي الا مقدمة لذلك ، فكأنه من عيون الحكومة ، تغلب من الحزن علي ما يغلب على كل البشر في مثل هذه المواقف ، وكنت الى ذلك الحين ، لا يزال في شيء غير قليل من بساطة البداوة ، لانني ما قدرت أن ألقي عني ذلك ، الا بعد هذا الحين ، حين مازجت الناس ومازجوني ، ثم لاقيت الرجال الرسميين ولاقوني ، فتفتحت عيوني ، وادركت من أين تؤكل الكتف .

جلست ما جلست ، فاذا بأوربي دخل وهو على دراجته ، فقام البواب فدق الباب ، فخرج ذلك الرجل المطربش ، فقدمني مع الاوربي الى روض صغير في ذلك الدرب ، فاقبل على ذلك الاوربي واعرض عني ، فصارا يتبادلان الحديث بالفرنسية ، ولا يميلان الى غيرها ، فازدادت الوساوس مني ، وفي كل فترة ارى الرجل ينظر الي بمؤخر عينه ، فأحمل ذلك على انهما يتكلمان حولي ، فاعزم على ان اتلقى الصدمة المتوقعة كما هي،وبعد حين جيء بالطعام ، فغسلنا ايدينا

فصرنا ناكل ، فـاذ ذاك فقط ، حلا لذلك الرجل المطربش ان يوجـه الي أول خطاب ، وقد احمر وجهه ، ومال برأسه الى الاطراق ، يقول : ان مولاي الصديق العلوي بـ (فاس) يسلم عليك ، فانفتح باب المحادثة بيني وبينه ، فقلت : عليك وعليه السلام ، فاندفعت كما يندفع الحمار على الاسد ، اي اندفاع خوف، احادثه ، فانفش في لحظة كل ما في من الوساوس ، فقد علمت ان الرجـل هو مـولاي الحسن ابن السلطان مـولاي عبد الحفيظ ، وانـه كان يأخذ عن مـولاي الصديق العلوي بـ (فاس) ، وكان هذا من رفقائي حين الاخذ هناك ، ثم ان مولاي الحسن تيسر له الانتقال الى (الحمراء) لاقترانه ببنت هذا الباشا منو ، فأوصاه المذكور ان يفتش عني وان يلازم دروسي ، قال وقد سألت عنك فلـم أجد عنك خبرا ، فصرت آخذ عن سيدي اليزيد الروداني حتى اخبرني عنـك مخبر أمس ، فجئتك اليوم لتنظر في شأني ، فهذا كان سبب مجيئي ، ولكنه لبساطته ايضا ، ولعدم محاككته بالناس ، غلب عليه الحياء مني ، فذهل حتى عن السلام علي ، وعن مفاتحتي الحديث العادي ، فكان من حين ملاقاتي ايـاه يحاول ان ينفتح باب الحديث ليخبرني بمراده ، فلم يجرؤ على فتحه الا اخيرا ، وقد ناله من هيبتي ـ كما قال ـ مثل ما نالني انا من الوساوس التي نبتـت مما ذكرته فالتقى أبلهان لم يتعودا الاحتكاك بالناس ، فأساءا الى انفسهما من حيث لا يعرفان ، وكم وهم فعل أعظم ما يفعل السم .

زال كل شيء امامي ، فاقبلت على الحديث حتى استوليت على ناصيته ، فحين طلب مني دروسا خاصة ، قلت له انني هنا جارك ، فاحضر دروسنا في الزاويـة ، فان في ذلك الكفايـة لك ، ولا ينبغي ان أجعل العلـم خاصا بك ، والعلم متى منعت منه العامة،لم تنتفع به الخاصة،كما قال مالك لهرون الرشيد، اقول ذلك بشبه كبرياء كرد فعل لما وقع لي ، كأنني اريد ان أقتص منه في الذي أصلاني به عـن غير عمد من الوساوس التي ارخـت علي عزاليها ما شاء الله ، ثم بعد الغـداء ذهبت لحال سبيلي ، وفي الغشـى جاءني احد اصحاب الباشا فبلغني سـلام الباشا ، وطلب مني ان أعين دروسـا لصهره المذكور بخمسين فرنكا في الشهر ، فثار ثائري لانني أبعد النـاس من أن أقبل ان ينظر

الي بنك العين ، فقلت له انني ساهيىء له دروسا بحسب الامكان ، غير انني لا أقبل أي أجر عنها ، فالعلم اخذناه هكذا مجانا فلنعطه مجانا – وكانت تلك الفكرة اذ ذاك لا تزال مستولية علي ، ازهو بها كما يزهو بها كل المدرسين اذ ذاك ، فلا لذة لنا الا في نشر المعارف – ثم بعد ايام دخل علي الباشا في ذلك الروض ، فلم تنفصل الجلسة،حتى اتصل قلبانا اتصالا تاما يزداد بطول الايام امتزاجا ، ثم كان يرسل صاحبا له في وقت كل غداء دائما فأجيبه ان لم يكن عندي عذر ، والا فيقبله بلطف ، فكان اتصالا متسلسلا من تلك السنة 1349 هـ ، الى ان فرق الدهر بيننا في آخر سنة 1355 هـ ، وكان يختلف الى (زطاط) احيانا معلومة من كل سنة ، ويمكث في (مراكش) ما سوى ذلك ، وكان يتجنب الناس، فلم يكن يطرقه الا قليلون جدا ، كانسان تونسي مثقف وآخرين قليلين ، وكان يمشي في مروءته كلها على عادة الجيل القديم ، وسنذكر في هذا الكتاب ان شاء الله كل ما يتصل به من كل النواحي ، فقد صحبته ست سنوات صحبة لا ينبغي ان يضرب بها عرض الحائط وان تنسى مع ما تضمه هذه الاحاديث القلية ، وكان فكها اريحيا مخالقا رفيع الهمة لا يسف الى محاورة ولا الى مخاصمة ولا الى كل ما يلم بمروءته ، ووطنيا غيورا عارفا بالدنيا كريما مترف المائدة متأدبا مراعيا ، والذي أراه انا منه آخر يوم ، هو الذي رأيته منه أول يوم ، احتراما زائدا وذكرا جميلا ، ولم آته قط الا اذا استدعاني في كل يوم ، ثم لم يحمله ذلك على ان يقول : انه آلف للمحل ، فليجيء او ليذهب ، بل كان محافظا على ان يسلم لي احساسي وأنفتي ، ومثل هذا في الاصحاب قليل ، ولكون الاحاديث عنه كانت حول مائدة الغداء ، اخترنا ان نسمي الكتاب بذلك ، وخير الاسماء ما كان موافقا .

ما كنت قيدته عنه

أول ما أذكره هنا ما كنت قيدته عنه ، أورده بحروفه ، فانه على قلته مفيد عن بعض تاريخ والده الحاج محمد منو قائد العسكر السوسي ، ثم نضيف الى ذلك مـا لا أزال استحضره مما ذكره عنـه ، ليكون ذلك كترجمة مستقلة لذلـك الرجل العظيم ، ثم نتخلص بعد ذلك الى حياة ولده الباشا ادريس الذي انته مائدة غدائه بحياة خالدة ، نص ذلك :

الجلسة الاولى 22 شعبان 1355 هـ

الاصل الاصيل لآل منو من الشرفاء الوزانيين ، ولا يزالون مع آخرين في (اداو بعقيل) وفي (هشتوكة) يحملون هذه النسبة الى الآن ، وتحت أيديهـم رسوم وظهائر ومشجرات انساب تدل على ذلك .

انتقل أجدادهم من حلة (الوزانيين) بـ (الغرب) الى جبال (آيت صواب) بـ (سوس) فتفرعوا هناك ، وممن بقي منهم هناك الى الآن وهو من بني أعمامهم الفقيه الكبير الحاج عابد ـ اي عبد الرحمن كما هو اسمه التام ـ الذي كان من اركان النهضة الهيبية ، ثم مات بعد ذلك سنة 1350 هـ ، ثم انتقلت هذه الشعبة التي منها اسرة آل منـو الى (هشتوكـة) وهي التي تسمى (آيت بوشوار) ، ثم انتقل سعيد جد القائد الحاج محمد من حلة (البوشواريين) الى حلتهـم الآن في (اداومنـو) من (هشتوكة) ، وخلف سعيد بعده ولدين عليا وقدورا ،

ولا يزال هنـاك احفاد لقدور موجوديـن الى الآن ، وأما علي فله ولـدان الحاج محمد والحاج محمد – فتحا – والاول مات سنة 1325 هـ ، فخلف بعده عليـا وأحمد ثم مات علي فخلف محمودا واحمد ومحمد – فتحا – وبنات ، واحمد بـن علي خلف عبد السلام الحي الى الآن ، كما يحيا عماه الآخران ، وأما الحاج محمد – فتحا – فهو الذي يساق له الحديث واشتهر بالحاج منو في الحياة الجندية المغربية في النصف الاخير من القرن الماضي ، ولا يجهل اسمه كل ذي أذنين .

الحاج منـــو

قال أخبرني عمي الحاج محمد بـاه لفي قال كنت انا أكبر من ابيك ، ثـم أسعف والدنا أباك بالذهاب الى الحج ، فصممت على ان لا أتخلف عنه وان كان ما كان ، فبعد التـي والتيا سافرنا في سفينة مـن ذوات الشراع السائرات بالريح ، وذلك في أواسط عهد المولى عبد الرحمن ، فنزلنا بـ (الشام) فحججنا راجلين وعلى الابل،فلما كنا بـ (المدينة) سمعنا مناديا يحثحث الناس على الجهاد، فيبادر الناس الى الانتظـام في الجندية العثمانيـة ، والسبب في ذلك وقوع حرب بينها وبين بعـض الدول التي تحـاول دائما ان تنـال حظها من تركـة الرجل المريض – كما يقال اذ ذاك في الدولة العثمانية – فاقبل المسلمـون الحجاج ينخرطون في الانتظام في سلك الجندية ، فحفز ذاك الحاج محمد فعزم على الانخراط في ذلك ، قال العم فحاولت ان أحول بينه وبين ذلك فركـب رأسه ، وتصلب في ارادته ، فغادرته هناك مع ثلة من المغاربة ، قال الحاكي ثم بقي والدي هناك ما شاء الله حتى انقضت تلك الحرب ، فانكشف الستار عنه وهو ضابـط صغير بين الضباط ، ترقى الى ذلك ببسالته وحصافة رأيه ، ثـم انظم الى جند عثماني أرسل الى (طرابلس) ، فهناك أخبر بان سلطان (المغرب) قد شرع في تنظيـم جند على النظام الحديـث ، فحفزه الشوق الى بلده والى معاشرة قومه الاخصاء الى ان ودع الجندية العثمانية فولى وجهه شطر (المغرب)، فوجد سيدي محمد بن عبد الرحمن ولي عهد المملكة المغربية مستغرقا أوقاته في ذلك بعد 1260 هـ ، اثر وقعة (ايسلي) المسماة عند العامة وقعة (بوهراوة)

وقد كان المولى عبد الرحمن يستنكف من ان يتولى امر الجندية اجانب ، فكان يستعين في ذلك بالمتجئين الى ايالة (المغرب) من بعض ضباط تركيين ، كانوا اذ ذاك لا يزالون في (المغرب) ، فهم الذين وضعوا النواة الاولى من الجند المنظم اذ ذاك ، ومشوا في تدريبه وتمرينه اشواطا ، ولذلك لما ورد الحاج منو وجد أمامه اولئك التركيين وقد عرف لغتهم والاشارة العسكرية من الفاظها ، ففتح له ذلك بابا متسعا للانخراط في الجندية المغربية مع التركيين ، فكان اول مرة فيها بمرتبة الفسيان ، ثم صار بعد ذلك يترقى حتى صار الخليفة الاول للخواجة التركي القائد العام للجند المغربي ، وكان قبل أن يترقى الى هذه الدرجة جاء اذن من السلطان لولي العهد ان يرسل طائفة من الجند لبناء قصبة (بوزنيقة) بين (الدار البيضاء) و (الرباط) ، فندب الحاج منو مع ثلة من الجند فوقفوا حتى تم العمل المراد ، ثم لما مرض السلطان بعد هذا الوقت مرض موته سنة 1276 هـ ، خرج ولي العهد من (مراكش) على رأس جنده المنظم جميعه محاولا ادراك والده في حياته ، ثم فاجأه في قلعة (السراغنة) نعي السلطان وبيعته بعد ابيه ، فصعد الحاج منو الى (مكناس) مع السلطان الجديد ، وقد دهمت طلائع الحرب الاسبانولية فانتدب مولاي العباس بكل من تيسروا من الجند المنظم - وليس بكثير - وبغير المنظم وبالقبائل ، فكان ما هو معلوم ، فشاهد مولاي العباس من الحاج منو بسالة نادرة وتضحية عظمى ، وخوضا للمعارك مع توالي الجروح عليه ، فلا يكاد يبرأ من جرح حتى يدهمه آخر ، مع ما فيه من المرونة التامة على الانقياد للاوامر الذي يصدرها المولى العباس ،في حين ان التركيين ليسوا كذلك ، فكان ذلك سبب لهج المولى العباس به ، فيقدمه عليهم ويشاوره دونهم ، فكنت لا تسمع منه الا اسم الحاج منو في كل مشاورة عسكرية ، وعند اصدار الاوامر الحربية ، فأدى ذلك الى غيرة شديدة تفجرت من رؤسائه التركيين ومن كل من هم فوقه ، فلما قضى الامر ، وكان ما كان في تلك الحرب ، ووقعت الهدنة ، رجع مولاي العباس مع الجند المنظم الى (مكناس) فجلس السلطان لعرض جنده المنظم وكان أحب شيء اليه ، لينظر

كيف حاله بعد مفارقته ، فيمر به الجند وهو يمعن النظر فيه ، وازاءه المولى العباس ، فسأل المولى العباس عن الحاج منو لانه تعجب حين لم يره في مركزه ، فقيل له انه في السجن ، فالتفت الى السلطان فأفاض سجالا من الثناء عليه وعلى مبادئه وعلى ما قام به في تلك الحرب ، ولم يكن السلطان ليجهله ولكنه لم يكن ينظر اليه بتلك العين ، فأراه المولى العباس ما أرؤسائه عليه من الضغن والحسد ، وفي الحين الذي يخبر فيه المولى العباس السلطان بذلك، أخبره مخبر بان جند منو مستجير الآن بحرم (سيدي محمد بن عيسى) المشهور بـ (مكناس) استنياء من القاء القبض على رئيسه مع نصحه التام في الخدمة ، فلما استشف السلطان ما في ذلك كله وأحس بدسائس التركيين ضد هذا المخلص الامين ، استشاط غضبا فامر باعتقال جميع أولئك الرؤساء، وان يوتى بالحاج منو في الحال ، فرقاه الى الرئاسة العليا على كل الجند المنظم ، فكان ذلك أول ما سطع نجمه في القيادة العليا في الجند المغربي .

الجلسة الثانية 23 شعبان 1355 هـ

عرفنا ان الحاج منو استحالت في يده القيادة العليا على جند كان بلغ اذ ذاك نحو 5000 فاقبل كل الاقبال على تنظيم ما في يده وعلى السعي في الراحة التامة لهم ، فاعتنى اعتناء زائدا بالجند ، فأعاد تنظيم القيالق ، وغربل الصفوف ، وعين الضباط تحت يده ، فكان لطابوره كل ما يحتاج اليه ، فكان طابوره هو المتوفق على طابور البخاريين الذي تحت ايدي قواد بخاريين يختلفون على القيادة ، الى ان كان اخيرا تجديد القائد العربي بن حمو ، كما ان طابورا آخر يسمى طابور العبيد يضاف لمحمد بن المزوار ، وكان كل هؤلاء يزيدون جندهم كلما وجدوا فرصة لذلك ، الى ان ادرك طابور الحاج منو آخر عهده نحو عشرة آلاف ، وكانت وظيفة هذا الطابور حراسة السلطان والايالة في تخومها ، وطابور العبيد وطابور البخاريين لا يفارقان السلطان

حضرا وسفرا ، على حين ان طابور الحاج منـو المتكون من مرتزقة القبائـل يدرس غالبا تخوم جبال البربر والثغور الشرقية،فكان يسمى (ليدايل)،فكانت القصبات المخزنية المحتاجة للحراسة من (وجدة) الى (خنيفرة) الى قصبـة (آيت الربع) في (تادلة) كلها في يد الحاج منو وحده كـ (مكناسة الكبيرة) ازاء (تازة) وهي قصبة كبيرة اسسها المولى اسماعيل ، و (سلوان) و (الميـس الكبير) و (الميس الصغير) في جبال (آيت يوسي) ايضا و (أدخسان) و (غرم العـلام) وأمثالها ، وكذلك في (آيـت بعمران) فهنـاك من جنده الحاج علـي البعمراني خليفة الحاج منو هناك ، كما ان هناك في هذه القصبات التـي ذكرت ضباطا تحت القائد الاعلى الحاج منو كالحاج محمد ويدة والقائد وورخا وهـو الخليفة الاكبر عند الحاج منو والقائد محيمدات والحاج مبارك الراويع والقائد الهياضي وحاحي آخر يظن الحاكي ان اسمه يسمى القائد ابرهيم ـ وليـس بهذا الذي في (سلا) اليوم،لان هذا أصغر من ذاك بكثير ـ وهؤلاء من استحضر أسماءهـــم .

وعادة الحاج منـو في السلطة التي في يده ان جميع مؤن هذا الجند المفرق هو الذي يتسلمها ، ثم يفرقها على نظامها ، وفي يده ترقية من شاء وارساب من شاء ، وعنده تفويض من السلطان ان يفعل في ذلك ما فيه المصلحة .

من عاداته انه يمعن في تتبع نظم العسكرية لا تاخذه في ذلك هوادة فلا يرخى العنان للجند في أي محل كانوا ، كما انه لا يذرهم يستطيبون الراحة ، فكان بهم دائما في حركة وانتقال وتمرين ، فهم في هذه السنة هنا وفي تلك هناك ، هذا مع ان الحاج منو قلما يفارق هو بشخصه السلطان الا اذا ذهـب فينة بعد فينة لتفقد التكنات ، ولملازمته للسلطان يرى دائما في طليعة مـن معه حتى في الصيد في كل يوم السبت ، لان السلطان سيدي محمدا مولع بـه ذلك النهار مدة عهده ، ثم صار ذلك عادة عند كل المغاربة .

ثم ان جند الحاج منو هو جند الزحف الذي تهاجم به الحكومة وتدافع ، ولما اشتهر به من العركات الشديدة كانوا متى سمعوا بان السلطان وجهـه

الى جهة عرفوا ان المقصود عركها عركا شديدا ، وارغامها على الطاعة رغـم انفها ، فيصادمها بالمكافحة ان أجدت او بالخدعة الحربية ان لم يمكن سواها .

حدث مرة أن (آيت يوسي) ثاروا على الحكومة ، فانتدب اليهم الحاج منو بجنده ، فحمل عليهم حملة شعواء اضطرتهم الى التحصن في القصبات المخزنية التي في بلادهم ، فحاصر (الميس الكبير) و (الميس الصغير) ، فاما (الصغير) فسقط بعد جهد ما فاحتلته الجنود ، واما (الميس الكبير) فكان امنع من عقاب الجو ، فـرآى الحاج ان المطاولة والخدعـة هما اللتان تفتحان عليه القصبة ، ثم الح عليه بالجنود مستديرين به كالمعصم في السوار ، فاوعـز سـرا الى من حفـر سربا مـن بعيد حتـى وصلوا تحـت أس الجدار فملأوه بالبارود ، ولكن لم يتأت لهم ذلك الا بعـد شهور وجهود ، ثم أمر بالانسحاب كأنهـم هاربــون .

قال الحاكي اخبرني القائد ويـدة ، انهم بمجرد ما انسحبوا بامر الحـاج محمد تفرقع البارود ، فطار بالسور وبالذين هناك ، فبادر الجند فسلسلوا مـن بقوا وراء النار ، قال فساءني شريف رأيته مجندلا كان يختلف الينا فيخبرنـا بما هناك ، فتأثرت كثيرا به حين رأيته يهلك في الهالكين ، ثم نمت فرأيت كأن فاطمة الزهراء ناولتنـي ثمرا أكله ، فانتبهت وكـأن الحلاوة في فمي ، فاشتد علي البكاء واسقط في يدي حين صرنا هكذا جلادين لا نمشي الا على الارواح المزهقة ، فدخلت على الحاج منو ، وحوله ضباطه وقد فرح بتمـام خدعته فرآني ممتقع اللون فقال لي مالك ؟ فاخبرته بما اثر في ، ثم قلت له ، الى متى نستمـر هكذا ؟ فقال اهذا كل ما يهمك ؟ اننـا تحت اوامر السلطان ننفذهـا ، وعليه كل التبعـات ، ولا علينـا في أي شيء ، ثم جللته السحنـة العسكرية فتجهم ، ثم نادى بالقهوة ، فناولني كأسا ، فقال اشرب وتذكر ايام شبابك الاولى ودعنا من هذا .

وثارت مرة اخرى (الخزازرة) و (اولاد محمد) من (الشاوية) ، وسعوا فسادا فـي الارض ، فندب السلطـان الحاج منو لعركهـم وهو مار من (فاس) الـى

(مراكش) ، فشن عليهم الغارة ، فشردهم وقتلهم تقتيلا ، ثم أقبل الى السلطان بأولادهم ونسائهم وشيوخهم وضعفتهم وما توصل اليه من محاربيهم،مصنفدين صفوفا صفوفا يعتلهم الجند،فلما رآى السلطان السلاسل تجر اليه بمن ذكروا استشاط غضبا وثار ثائره ، وقال للحاج منو ويلك أتنكا النصارى والاجانب ؟ أو ليس هؤلاء الا اخوانك ؟ ما هذا بفعل مسلم ؟ فوبخه توبيخا مرا حتى تأثر الحاج منو وأنف من تأنيبه ، ثم سرح السلطان اولئك بعد ما كساهم ووصلهم وألان لهم القول ، واعتذر اليهم ، فساء ذلك الحاج منو مساءة كبرى ، وهو الجندى الجاف العواطف الذي لا يحمل في قلبه ما يحمله كل الناس .

ثم ان المولى الحسن ولي عهد المملكة ، كتب الى السلطان والده ان من بـ (تادلة) قد شقوا العصا ، وأفسدهم ابناء الشيخ الشرقي ، وذلك لان المولى الحسن رابط في (وادي العبيد) نحو سنة ، ولم يطرقه اي تادلي ، ولا مد اليه احد من رؤسائهم اليد ، فصمد السلطان الى (تادلة) ...

هذا ما وجدته مكتوبا في الجلسة الثانية ، ولم تتم حتى هذه الحكاية ، ويالما يعقبه التواني ، فلو كنا كتبنا عن الرجل كتابا بهذا النفس لكان كتابا تاريخيا منظمامعتبرا ، ولكن لم يقدر ذلك ، وخوفا ان يحرم التاريخ حتى هذه الحكايات المقتضبة التي سنذكرها مما بقي في ذاكرتنا بادرنا الى ذلك ، خوف ان يأتي الغد بمن يتأسف ايضا على ذلك ، كما نتأسف اليوم على التواني في الذي فاتنا .

تتمة ما استحضرناه انه ذكره عن والده

قال كان للمولى الحسن ولي العهد يد في الذي وقع لـ (ازغارنديه أملود) بـ (حاحة) حتى خربت دار محمد أمعدور ولد الحاج عبد الله الحاحي بالوساوس التي يبثها المتوكي ، فحين نزل السلطان بـ (مراكش) في آخر عهده وتحقق ذلك ، غضب على ولي العهد غضبا شديدا جدا ، فقال له لابد ان تؤدي كل ما ضاع للحكومة بذلك ، فوظف عليه مائة ألف مثقال ، فلم يجد ولي العهد ما يصنع الا ان يجتهد في أداء ذلك عن آخره ، لان السلطان هدده بانه ان لم يفعل ذلك ليغربنه الى (تافيلالت) فباع ولي العهد كل ما عنده وجمع كل ما في مقدوره ، فلم ينض له من ذلك القدر الا ثلاثون الف مثقال ، فائتمر اربعة من كبار الدولة منهم الحاج منو وقائد (الرحامنة) واثنان - قد سماهم - فجمعوا من عندهم المائة ألف ، فقدموها لولي العهد محبة فيه ، لانهم يخافون من تغريبه وان يكون في مقامه اخ له لم يكن في مثل مسلاخ المولى الحسن ، ولا في مثل اخلاقه ورأفته ودينه ، فبمجرد ما قدم للسلطان ذلك ، أمره ان يخرج في الحين ليتنزل على دار (ازغار) بـ (حاحة) حتى ترجع كما كانت ، فخرج بسرعة مع من خرج معه ، ومن بينهم الحاج منو ، وفي ليلة طرقهم ناعي السلطان ، فبادر من معه لبيعته ، فاذ ذاك تقدم الحاج منو اليه طالبا للامان ، لان ما بين الحاج منو وبين موسى بن احمد لم يكن بالصافي ، فخاف الحاج منو من وسوسته غدا عند السلطان الجديد ، فاراد ان يستوثق منه ، فأمنه السلطان ، ثم أقبل معه ، فحين لاقاهم من في (مراكش) اراد المولى الحسن ان يدخل في باب هناك اخاله باب (أكناو) فقفز عبد مسن كبير فأخذ بحكمة الفرس ، فقال لا

والله لا تدخل الا في الباب المبارك ، وهو باب بناه المولى محمد بن عبد الله ، ولا أحسب الحاكي ينعت الا الباب الذي يقابل قبة (سيدي عمارا) من ابواب القصبة الخارجية .

وحكى ايضا ان والده كان أنوفا لا يرضخ لاحد ، وكان المولى محمد بن عبد الرحمن يلاطفه لمكانتـه عنده ، وكان لا يسمـي موسى بن احمد الا بالدرطاني .

وحكى انـه يوما كان مقبلا علـى نهر جار ، وهناك مـن لا يرضى به من اقرانه المخزنيين ، فلسبب خاص ذكره ، امر الجند ان يقطع النهر بنعاله مـن غير ان يخلعها اظهارا لعدم المبالاة .

وحكـى انه كان وفر لطابوره كل ما عسى ان يحتاجـوا الى شرائه ، فقد جمع مالا كثيرا مما ينتهب من الغارات ، فأسس به تجارة كبرى من كل شـيء من الكسوة ومن غيرها ، فوضعه في أيدي كثيرين من تجار يلازمونه ، فيشتري كل جندي ما شاء بالنسيئة الى ان تكون المؤونة فيقطع منه ذلك بقدره،قال ولا يمكن ان يقف رجالات طابوره على شيء فيفقدونه ، ويعد ذلك من مفاخره .

ثـم ذكر كيفية القـاء القبض عـلى الحاج منو فـي (مكناس) بصفـة لا استحضرها وانما ذكـر انه منفي بعد القـاء القبض عليه الى (تطوان) ، وان لبعض اصحابه من كبراء الجند دخلا في الذي وقع عليه ، وان السلطان ادخـل حليلته اي أم الحاكي الى دار المخزن ، فلذلك تربى مع ولد السلطان تربيـة واحدة وقد بقى هناك في (تطوان)ما شاء الله حتى جاء السلطان من(سوس)سنة 1299 هـ ، وقد تطلبت منه اسرته ان يمن على اخيهم فوعدهم ، ثم كان هنالك رجـل انكـليزي اقترح ذلك ايضـا ، ذكر الحاكي ذلك في اثناء حكاية ، وهـي انـه بينما هو في (مراكش) حين كـان باشا عليها اول 1330 هـ اذ جـاء اليه انكـليزي فتطلب منه ان يزيره سجن الحكومة لينظر كيف يعامل فيها المساجين، وتوسل بمنة انه كان هو المقترح على السلطان المولى الحسن اطلاق والـده

الحاج منو ، وذلك انه كان انتشب في تجارة في صحراء (وادي نون) ، ثم عاكسه المولى الحسن فأبى هذا ان يسلم الا بشروط منها اطلاق الحاج منو ، قال الانكليزي ولم أكن أعرفه الا انني سمعت بشجاعته فاعجبت به سمعا ، فتداخلت في أمره ، قال الحاكي فوجب علي ان أقضي حاجته ، ولكن خفت ان فعلت ذلك ان أقع مع قونصو (فرنسا) في مشكلة جديدة زيادة عما أنا فيه معه، فلم أجد الا الحيلة فقلت للانكليزي في الوقت الفلاني في اليوم الفلاني اذهب وحدك وستجد الاذن امامك عند حارس السجن ، فانظر ما شئت ، ثم استر انني اذنت لك ، فارسلت الى رئيس السجن فأمرته بما اردته من تنقية السجن غاية ورشه بالجير وتنظيف كل من فيه غاية النظافة ، ثم امرته بأنه ان جاءه نصراني وقت كذا في وقت كذا ، فاتركه وما يشاء من رؤية كل ما اراده من نواحي السجن ، ثم ان أرسلت اليك وهددتك فلا تخف من شيء ، فتم ذلك كله ، فقام قونصو (فرنسا) وقعد فجاءني فأخبر ان أجنبيا زار السجن مع اننا نطلب ذلك فلا ندركه ، فتجاهلت وقوع ذلك ، فأكد لي ان ذلك واقع فارسلت الى رئيس السجن فأقر بذلك - كما كنت امرته - فأظهرت الغضب وأمرت بجلده ، فتداخل القونصو مستشفعا فأظهرت انني سامحته في وجهه ، ثم اهديت الى الانكليزي طرفا منها فرس او فرسان من عتاق الخيل العربية .

انطلق الحاج منو فجاء الى (مراكش) فسكنها ما شاء الله مبتعدا عن الحكومة مع عرضها عليه استخداما جديدا فابى كل الاباء وكان حديدي الارادة.

قال ولده : انني لم أره الا مرة واحدة في (مراكش) ثم لم أعد اراه حتى مات قبل موت المولى الحسن كما أحسب انه ذكره ، ولم استحضر ان كان بين السنة ام لا .

ما يذكره عن المولى محمد بن عبد الرحمن

كان يذكره بانه بارع في علم التنجيم ويقول شاع عنه بانه كان يستطلع به المغيبات كثيرا ، وكان يذكر رجلين كانا معه في ذلك بارعين ، واحسب ان احدهما احد رجالات اسرة بوستة ، وذكر في ذلك حكاية ، وذلك انه لما بويع جاس معهما ليبحثا كم يمكث في الملك ، فاشتغلا بالحساب على قاعدة الزيرجة الى ان لم يبق الا الجمع الاخير في الحساب فناولاه اياه ليكون هو أول من يستخرج ذلك ، واول مطلع عليه لئلا يفجئاه وهو سلطان بما يكدره لو قلت المدة ، فحين جمع الحساب ادرك انه يبقى في ذلك ، اربع عشرة سنة ونيفا ، هذا ما قاله غير ما مرة وأكد انه صحيح ، وليتأمل في ذلك ، وليس ذلك عندي أنا بغريب .

وحكى عنه أيضا انه كان بارعا في علم الهندسة حتى انه تراءى هو واحد ذينك البارعين المتقدمين كم يكفي من الآجر في بناء جدول طويل في (أكدال) فقدرا ذلك ، فلم يفضل عن ذلك الا آجرات قليلة .

أقول ان هذا السلطان مشهور حقا بتلك العلوم ، وكان مولعا بالرياضيات، لهجا بكتاب اقليدس ، كما اشتهر ايضا بأوراد كثيرة فقد رأيت عند مولاي مبارك العلوي الاستاذ ب (الحمراء) كناشا فيه القدر الذي يذكره من الاذكار في ورد شيخه الكنتي ، وذلك آلاف فآلاف ، وذلك غريب من مثله ، غير ان ذلك صحيح ثابت وقد علمنا قبله اوراد محمد الشيخ السعدي ، ولم يكن الملوك المسلمون الصالحون الا كذلك .

ثم حكى كيف مات سيدي محمد بن عبد الرحمن ، قال انه كان نوى ان يتنزه ذلك النهار في (أكدال) ، فأرسل امامه العيال والجواري والخدم ، فتناول مسهلا لمغص قليل احس به ، فصار يتمشى في الدار ، قال وتحكي لي والدتي، وها هي الآن وراء هذه الجدار لا تزال حية ، انها كانت ترعاه ببصرها وهو ذاهب آئب في الدار حتى انه لم يدع مخزنا ولا قبة الا اطل عليها ، وهو ينتظر ان يصلي الظهر في الزوال ليلحق بمن ارسلهم امامه ، وفي الهاجرة احس بضعف فدخل الى قبة فامتد فوق ناموسية فاذا به يحس بالروح تزهق فاستدعى حينا بامرأة كبيرة سماها (كانت ملحوظة الى الغاية عند السلطان سيدي محمد وعند خلفه المولى الحسن بعده) فدفع لها الطابع فقال لها من يدك الى يد المولى الحسن ، وأحسب انه ذكر ايضا انها دفع لها ايضا مفاتيح ، حكى هذه الحكاية فقلت له ان الناس العامة لا يصح عندهم الا ان سيدي محمدا غرق في الصهريج، فقال ان هذا من أكاذيبها العجيبة الغريبة ، وأنا اعرف بنفسي هذه القبة مفروشة كما كانت يوم توفي فيها تبركا بهيأتها، تنظف وتترك كما هي، وعهدى بها في الايام الحفيظية على ذلك ، ثم قال مداعبا ان المراكشيين يقولون ان الغزواني هو الذي قتله حين نوى ان يجلي كثيرا من المراكشيين الذين اعد لهم جمالا وبغالا ، ومن يقدر سد افواه العامة ؟ .

أقول : العجيب انني سمعت من شيخنا شعيب الدكالي تأييد ما يقوله العامة الا ان ابن زيدان المتثبت ذهب الى ما قاله منو .

ثم حكى عنه ان موسى بن احمد كان من أحب الناس الى سيدي محمد في ولاية عهده ، وقد وقع لموسى هذا واقعة ، وذلك ان المولى عبد الرحمن كان مرة في داره فسمع العابا بالدفوف فسأل عن ذلك – وكان أكره الناس للعب وما اليه ، لانه ذو جد وقد كان تربى في (تافيلالت) في الجد ، فلم يكن يابه بالملاهي وكان متزمتا صليبا – فأخبر بانهم العبيد ، فأمر ان يلقى القبض على كل من وجد هناك فيباع ، فكان ممن قبض من النظارة موسى ، فاوعز ولي العهد بالمحافظة عليه حتى حازه ، فكان يجلس عنده مادام السلطان مولاي

عبد الرحمن الملك في (الغرب)،فاذا جاء الى (الحوز) اخفاه عنه حتى مات السلطان، فنال من سيدي محمد منالا كبيرا ، وبتلك الدالة تسلط على المولى الحسن بعده ، واحمد والد موسى كان وزير مولاي سليمان ، ثم فتك به البخاريون في (الحمرية) ، قال : وحين فتكوا به افتياتا من السلطان في خرجة له الى خارج (مكناس) وقفوا له لما اراد الدخول ، فبندقوا له ثلاث مرات ، لان ذلك علامة انهم يريدون شيئا ، والا بندقوا مرة واحدة فقط ، فالتفت اليهم فسألهم ما خطبهم ؟ فقالوا احمد مات الله يبارك في عمر سيدنا ، فاقبل داخلا وهو يقول لهم كلكم احمدات أي ما منكم واحد الا وهو احمد ، قال ذلك تملصا منهم لانهم اسروا ما بينهم ان يفتكوا به ان اساء الرد عليهم ، قال ثم ان البخاريات اجتمعن يقلن مرتجزات :

((لعتروس طاح فلحمريا علاش ندب عليه))

ما يذكر عن صباه وصبا اولاد السلطان

كان يذكر لنا ذكرياته عن صباه ، وكنت اكثر مساءلته عن عوائد دار السلطان فكان يخبرني بكل شيء تفصيلا تاما ، وقد ذهب عني ما يفيد من ذلك الا أقلـه .

حكى انه كان نشأ بـ (فاس) ثم اتى السلطان به وببعض اولاده الى (الحمراء) ليهتم بقراءتهم في (حمر) قال فأوقفنا صباحا امامه ، وذكر من بين الواقفين ممن استحضرتهم الآن المولى عبد الحفيظ والمولى عبد الكبير وآخرين ، قال وقرن كل واحد من أولاده بغيره كملازم له خاص ، فقرنني انا والمولى عبد الحفيظ ثم نادى معلمنا فامره ان لا يدعنا نخرج بثياب الزينة الا وعلى صدورنا بعض آثار سوداء للفحم او غيره ، وقال له انني أعرف ان العين من الاعراب هناك مؤثرة الى الغاية ، ثم امره ان لا يفضل اولاده على غيرهم وليكونوا سواسية في كل شيء ، ثم لما بلغنا هناك وجدنا امامنا معلم القرآن والعلم

ودارا مبنية قبل اليوم بكثير وبوابا وخدما يزاولون ما نحتاج اليه ، قال وكانت
تلك الدار أسست من يوم السلطان سيدي محمد بن عبد الله لاولاده ، والسبب
في ذلك انه كان هناك يوما فاجتمعت عليه القبائل فخرج في معسكره يتجول
متنكرا ليلة ، فشاهد حول فسطاط ما اعجبه من المروءة وقراءة القرآن بكثرة ،
فسأل عن اسمه فأخبر به ، واحسب انه سماه – هد بن الضوء – وفي الصباح
أمر بعرض القبائل عليه حتى وصل الحمريين فظل يسأل عن مشاهير قبيلتهم
فيتقدم اليه رؤساء جهال ، فقال اين فلان فتقدم اليه ، فقال انت أولى بالتقدم
على الجميع ، اسعد الله بك قبيلتك ، فقد وليتك عليها ، ثم قال له أحب ان
تنظر لي مكانا اشيد فيه دارا ليتعلم فيها أولادي بين ظهرانيكم ، لما أعجبني
من سمتكم ومحبتكم لحفظ القرآن ، قال فذلك هو السبب حتى صار اولاده
ثم احفاده يتعلمون هناك الى ان وصلتنا نوبتنا ، وقد مر بنا المولى الحسن
حين جاء من (مراكش) الى (آسفي) قاصدا لـ (سوس) سنة 1303 هـ ، فصار
يدور بنا في الدار ، ويرينا أسماء من كانوا معه هناك في عهد اخذه ، وارانا
مبيته ، وسرد علينا ذكريات له عن ذلك العهد ، يجترها علينا تلذذا بها .

ثم ذكر الباشا ان الذي كان يعلمهم كان يضغط عليهم ضغطا شديدا الى
الغاية ، وكان حاله ان لا ينام الا متأخرا ، ثم يستفيق مبكرا قبل الفجر بكثير،
فلا تسل عما ينالنا منه ، وكانت الفلقة موجودة في كل وقت ، وربما يبالغ في
ابناء السلطان حتى يغمى على احدهم ،وكانت العادة ان من سيضرب منهم
يقدم رجليه قرينه ، ولم نزل في ذلك كل أيام اخذنا ثم حاولنا معاكسته ،
حتى اننا سممناه يوما ، فسقط على الفراش وكاد يهلك غير انه لم يتمكن من
تناول كل ما جعلناه له مدسوسا فيما يتناول منه ، وكان المولى عبد الكبير هو
الذي يتولى كبر ذلك،وكانت العادة ان لوحات الشرفاء يغسلها لهم قرناؤهم،ثم
حكى في ذلك حكايات ، ومن بين ذلك انهم كما يؤاخذون بالتعلم يؤاخذون
بالفروسية ، فكان لهم استاذ خاص من اهل تلك البلاد ، فكانوا اولا يؤاخذون
بركوب الفرس عريا حتى يتمكنوا في ذلك ، ثم بالسروج ، ثم ان استاذهم

في الفروسية يسابقهم او يطاردهم ، وويل لمن رأى منه تقصيرا قليلا ، فانه لا يدري بأي شيء يضربه، قال وقد وقعت مرة في يده، فمال الى كل ما في متناوله من عصى ومن اصول النباتات الغليظة السوق على ظهري ، وكان يلزمنا لما شببنا ان نلجم خيلنا بأيدينا وان نسرجها بانفسنا ، وذلك كله كوصاية من السلطان ، وكنا بعد ان تمكنا من رؤوس الخيل نصطاد فنمعن في القفار فنجني معسول الاماني بذلك .

واحسب انه ذكر ان المعلمين للقرآن والعلوم متنوعون ، وقد كان يسمي كل من يذكرهم ، قال وفي اخريات ايام المولى الحسن قدمنا عليه بامره الى (مراكش) فوقفنا امامه ، فصار يختبرنا فوجد المولى عبد الحفيظ ابرعنا حذقا في القرآن وفي العربية وفي الفقه ، وقد استظهر متونا كثيرة لما له من همة وشغف ، وقد لاحظني حينذاك فرآني شابا فارعا اطولهم جميعا ، فقال انك قد كبرت ونزعت الطول من كل هؤلاء ، ولكنك لم تستفد شيئا ، فاذ ذاك تقدم اليه معلمنا فقال له ان اولادك قد شبوا ولا يمكن لي أن أتمكن منهم بعد ، فتملص من ملازمتهم بذلك فتطلب ان يسامح في تعليمهم ، فأسعفه السلطان وأوعز باجازته بأشياء كانت في نظره قليلة – لان السلطان مولاي الحسن مشهور بخيل مقتصد كز في اعطياته كما يصفه به الحاكي دائما وسنرجع الى ذلك – فلم يرضه ما اخذه ، فقال انني جئت اليك يوم استدعيتني لتعليم الشرفاء ، وداري صالحة واهلي بخير فيها ، واليوم تهدمت ، فامر السلطان باصلاحها ، واحسب انه ذكر انه اقترح ان يعطي ما تصلح له بها في يده ، فتم له ذلك كله كما اراد ، وكان هذا الاستاذ جديا معلوما بذلك ، والغالب انه كان يقول انه مكناسي ، واتوهم انه يسميه فضولا ، لا أتحقق ذلك ، قال ومن جملة ما وقع له انه حين كان في (مراكش) ،كنا نجلس لعرض سورنا فطرقنا المولى عبد العزيز وهو صغير يتمشى في الدلال الذي رباه به والده ، وكان اخذ له معلما على حدة ، غير انه يلاعبه ولم يكن يتعلم منه شيئا ، فدهمنا في محلنا فاراد ان يعبث كما الف مع معلمه ، فنظر اليه معلمنا شزرا وزجره بغلظة ، فارتاع

فأجفل صارخا الى والده وهو في منزه عال ، فلاقاه وقد سمع صراخه ، يقول له ما ذاك ؟ ما ذاك ؟ فذكر له ما صنع معه معلمنا ، فقال له السلطان ان ذاك يا ولدي صعب فلا تقربه منذ اليوم ، فلا يطيقه احد .

قال ثم اننا بعد ان استيقننا اننا لا نرجع الى (حمر) واننا تملصنا من ذلك المعلم الشديد علينا ، انتشبنا في القفز واللهو ، حتى لا نبالي بمعلمنا وهو لا يزال مكلفا بنا ، فكنا ندخل ونخرج جارين ، ومن بين ما وقع لنا اذ ذاك اننا كنا مرة في براح نتجارى حول الكرة وفيها شرفاء كالمولى عبد الحفيظ ومولاي عبد الكبير ، وآخر اظن ان اسمه جعفر ، وكنا معهم نحن القرناء ، ومن بيننا ولد العلج ، وكان ايضا قرينا لاحد الشرفاء ، فضرب ولد العلج في الاصطدام حول الكرة أحد الشرفاء وقد ذكره واحسب انه من أظن اسمه المولى جعفرا ، فسقط ونحن نتضاحك عليه ، ولم تحسب ان رجله تكسرت من شدة ضربة ولد العلج المتين العضلات القوي المنة ، فصرنا نأخذ برجله نجره ، وهو يصرخ ونحن نحمل صراخه على انه لم يرض بما أصابه ، غير ان جارية ادركت ما وقع ، فجاءت فحملته على ظهرها ، فاذ ذاك سقط في ايدينا اذ علمنا انه منكسر الرجل من أعلاها ، فأطل علينا العبيد وقد عرفوا ما كان ، فتقدم عبد كبير ممن كلف بالنظر في الابواب وما اليها ، فنادى العبيد ان خذوا هؤلاء الذين فعلوا ما فعلوا بابن السلطان فانقضوا علينا كالبواشق على الفواخت ، فعتل اثنان منهم كل واحد منا وذلك العبد الكبير يزمجر غضبا على ابن مولاه ، وفي تلك الدقيقة رأينا السلطان مقبلا بجبة محببة على رأسه عمامة ملونة مما يعتاد ان يضعه احيانا على رأسه في الدار – شلا شيكر – وهو يخطو خطوات واسعة ، وكان طويلا غليظا يملأالعين لتناسب الغلظة مع طوله ، وقد كان في منزه عال يرى بعينه كل ما وقع ، فأسرع فبمجرد ما وصلنا صاح بالعبيد الذين احاطوا بنا اطلقوا الاولاد ، ثم صاح بالعبيد خذوا هذا ، لذلك العبد الذي امر بالقاء القبض علينا ، ثم امر بمده للجلد ، وهو في أعلى سماوات غضبه ، فيقول أضرب اضرب للجلادين وهو يصيح به، مالذي ادخلك بين الاولاد الذين يلعبون؟

أو ليبدوا كلهم أولادي ؟ فان وقع لهم في لعبهم شيء فانما ذلك غلط ، قال فتملصنا من الموت ونحن ننتظر ، فرجعنا الى ابعد مما كنا فيه من المرح ، وقد أمنا من كل الاعوان والعبيد ، فدخلنا في الحين الى (أكدال) فصادفنا جنينة نارنج يحرسها عبد مسن هرم من عبيد المولى سليمان ، فأقبلنا بجماعتنا نجني ونكسر الاغصان ، ونصيح بالعبد ، فلم يكن من العبد بعد ان بلغه ما وقع لذلك العبد المجلود ، الا ان استرجع وحوقل ولعن العصر وأهله ، وقال ان هذا زمن الصبية ، مات الجد وذهب الرجال وعشنا الى زمن يتولى فيه علينا الصبية - وكان امثاله لا يسمون المولى الحسن الا صبيا ويرون الرجولة انقطعت بموت المولى عبد الرحمن - فجمع هيضورته وتناول بعض متاعه فخرج من الجنينة ، فكان من القدر ان مات ذلك النهار نفسه ، فذهبنا نحن قدما سادرين لا نلوي على شيء ، ولا نخاف أحدا .

وحكى ايضا انه في ذلك الحين ورد بعض سفراء (الانكليز) الى (الحمراء) فحين دخل السفير يدور في (أكدال) تبعه بعض اتباعه وعلى يده تلك القبعة الرسمية الكبرى التي يلبسها السفراء اذ ذاك ، فأردنا ان نمعن فيها النظر،ولكننا نخاف ان نكفر ان لمسناها ، فلا نلمسها الا كما نلمس جمرة .

وذكر انه كان يأخذ مع رفقاء له في مبدا القراءة بـ (فاس) في دهليز طويل في جهة ، والمولى عبد العزيز في جهة اخرى عند معلم آخر ، ومقصوده أن يبين ان هذا المولى رباه والده في دلال عظيم ، حتى انه افرد له وحده معلما.

احاديثه عن المولى الحسن ابيه الثاني

كان يصف المولى الحسن بالاقتصاد التام ، ويعزو ذلك الى الصدمة التي تحمل ضربتها مع ابيه من جراء ما تسلفوه من (الانكليز) بسبب (تطوان) ، قال كان لا يأمر في جوائزه الا بقليل ببضعة مثاقيل ، ولا تسمح عند امره بعطاء من أحد اعوانه صاحب المكحلة ، يقول لك سيدي احسن الى هذا بكذا ، ثم لا يتجاوز ما يأمر به دراهم معدودة ، وكان يروي عنه من تنظيم الدخل والخرج ما يبهر العقول ، حتى انه رآى مرة اربع بساسيط ناقصة في خرج فبحث عنها كل البحث حتى عرف اين ذهبت فاسترجعها ، وذكر من محافظته على تنظيم الوقت ايضا ما يتعجب منه ، قال انه يفيق قبل الفجر بكثير باعلام الموقت المكلف بذلك عى أيدي البوابين والخدم ، فياتي صاحب الوضوء بوضوئه فيدخل متوضاه ، وصاحب الوضوء واقف ومعه صغير من معاونيه حتى يخرج السلطان من هناك فيتنقل ما شاء الله ، ثم يجلس على كرسيه يتصفح الاوراق الرسمية او يوقع الى ان يعلم ايضا بقرب الفجر بالقدر الذي يلبس فيه لباسه، فبمجرد ما يلبسه يخرج ، وفي الباب يؤذن عليه المؤذن ، فيصلي بالناس في مسجده الخاص ويقرأ من الحزابين قليلا ، ثم يدخل ، قال وقد حضرت مرة مع صاحب الوضوء كمعاون به وأنا صغير ، حملت له الفنار ، فجلسنا امام المتوضأ ننتظر خروج السلطان ، فنمت غلبة ، ولم اشعر حتى لكمني صاحب الوضوء لكلمة عنيفة جدا ، ثم اني القيت بالخوف أمامه بالفنار ، ورأيت ايضا مرة السلطان ينتظر طلوع الفجر وقد لبس ثيابه ، فكان يأتي ويذهب على الزليج مقبلا مدبرا ، وكأني اسمع الى الآن صليل نعل جديدة لبسها فتصوت على

احتلال تطوان وبعده الازمة ذكرها جرمان عياش في كتابه

الزليج ، قال ثم انه بعد ان يصلي يفطر ، ثم يشتغل باتمام التوقيعات الى ان يحين وقت المخزنية بعد طلوع النهار ، وفي بعض الاحيان يخرج يتريض قبل وقت المخزنية في بعض البساتين القريبة ، ثم بعد المخزنية يدخل في الهاجرة فيصلي ثم يتناول الغداء وحده ولا يأكل معه غيره دائما ، وكان يرسل مما يتناول منه لمن شاء اكرامه اكراما خاصا والخدم من الجواري واقفات ، قال دخلت عليه مرة في وقت الغداء لاطلب منه اقامة حفلة لنا معشر التلاميذ ، وقد ارسلني الشرفاء اولاده اليه ، فامرني بالجلوس عن كثب ، فتناول بيده من طجين فغرف منه فوضع في غطائه ، فأمر الخدم ان يناولنني اياه فامرني بالاكل ، فكنت آكل ولا أمعن من هيبته ، وهو يحثني بصوت جدي ان ابالغ وآكل .

وذكر ايضا كيف كان تنظيم قصره ، فان كل احد يقف عند ما حد له ، وويح من تخطى ذلك ، وكان لا يرحم احدا في التاديب الواجب ، وذكر في ذلك قضيتين حضرهما ، احدهما انه رآى السلطان امر بجلد خدم من الجواري لسبب ذكره لا أستحضره ، قال فوقفت امرأة كبيرة أزاء الباب تقول من غير أن ترفع صوتها ، ولكنه يسمع انهن تائبات لله يا سيدي ، تكرر ذلك بلطف وتؤدة ، بصوت رقيق منحدر تستعطفه بذلك لعل قلبه يرق لهن ، فيأمر بالزيادة في الضرب وهو لا يبالي بها ولا باستعطافها ، وثانيهما ما أوقعه في العبيد الذين صحبوا المولى عبد العزيز الى زيارة (مولاي ابرهيم) ، وقد ارسله هناك والده ليقدم عوضا عنه ذبيحة ، فطار بارود في وجه المولى عبد العزيز ، وتأثر به وجهه ، كأنه كان يلعب به ، فبمجرد ما دخل وآنس ذلك من وجهه ثار ثائره لكونه سويداء قلبه فخرج الى العبيد الكبار الذين كانوا في ركابه، وكانوا من الرؤساء المحترمين جدا ، فأمر بهم واحدا واحدا يجلدون ، قال وكاني انظر فلانا وسماه وهو ممدود بين اربعة ، ولحيته التي امتزج فيها السواد بالبياض تجرر بالارض ، وعذاراه الطويلان الكبيران (على عادة المخزنيين اذ ذاك) يغبران بالغبار ، وهو يعلن بالتوبة والاسترحام ، ولا من يرحمه .

وكان يذكر امراة كبيرة مسنة احسب انه قال من نساء المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن ، وكان يسميها ويعلي شأنها ، وكان لها شأن كبير في ادارة الدار ، وهي التي حافظت كل المحافظة على ما كان عليه نظام الدار من عهد الملوك المتقدمين ، وهي التي تنظم طعام الاعياد والشعبانيات والاعراس والعقائــق ، وكانت تركب المحفــة في البساتين وتحملها الجواري ، وكــان السلطان يحترمها كثيــرا ، ويقدم رأيها في كــل شيء شيء ، وكانت لها آراء يأخذها عنها،كما كانت لها سلطة كبرى على كل من بالدار،قال وفي اليوم الذي توفيت فيه مشى السلطان في جنازتها وقال ذهبت عمارة دارنا .

وذكر ان الوزير موسى بن احمد كان في غاية الاستبداد على السلطان يعرف الناس كلهم ذلك منه ، حتى ان فلانا ــ وسماه ــ دخل يوم مات موســى على المولى الحسن . فاعلن بالبيعة ، كان ذلك كان اول يوم في بيعته اياه ، فقال له السلطان أو لم تكن بايعت واعلنت بالنصر ؟ فقال له غير انك لم تكن حقا سلطانا الا هذا اليوم .

وذكر انه سمع ان السلطان حين بلغه ان (الانكليز) بنى مركزا تلغرافيا في (طنجة) على رغم انف السلطان ، استشاط غضبا فأعلن انه لابد من محاربته بما أمكن ، فتجرأ اناس يعارضونه فكان نصيبهم السجن ، حتى جاء انسان ــ وسماه ــ وتلطف فقال له ان مولاي عبد القادر الجيلالي يقولون فيه سلطان البر والبحر ، والحقيقة ان هذا الوصف لا يستحقه الا (الانكليز) الذي يملك كل شيء من جنود البر والبحر ، ثم قال للسلطان ، على اي شيء تعول فــي محاربتك له ؟ أعلى قليل من هذا الجند الذي بيدك فان عنده منه مئات الآلاف ، أم على القبائل وقد عرفت ما هي القبائل في امثال هذه المواقف ، فسرعان ما ترجع الى الفوضى ، والخروج عن الطاعة ؟ فلم يزل به حتى رجع عن فكرته، هكذا كان يحكي وفــي القلب من ذلك شــيء ، لان المولى الحسن بحصافته لا يبلغ به الحال ذلك ، زيادة على ما رأيناه بين (المغرب) وبين (الانكليز) من حسن الجوار ، وبقيامه في قضية (تطوان) ، نعم ان تلك المشادة حــول

مركز تلغرافي مذكورة حقا ، غير ان الذي لا يقبل ان يجول في عقل السلطان اعلان الحرب على (الانكليز) ، وفي مكاتباته مع بركاش ما يعرف منه انه لا يقف أمام الاجانب لما هو الواقع ، لانه يدرك ما يقع لـ (المغرب) لو وقف موقف مشادة ، وما قضية (تطوان) ببعيدة ، وهي عظيم لا ينسى ولن ينسى ابدا .

وذكر ان عقلية المخزنيين اذ ذاك مسفة غاية الاسفاف ، خصوصا عبيد البخاري والاعوان والمستخدمين الصغار ، قال كثيرا ما كنت اسمع ان الدولة الفلانية تقربت الى السلطان مولاي الحسن بأن اهدت اليه ساعات حربية كانت لها على الدولة الفلانية ، ويفسرون ذلك بان تقف عساكر الدولة المدنية صفوفا صفوفا بلا سلاح ،فتقبل جنود الاخرى عليهم تقتيلا وفتكا حتى تدق آخر ساعة من الساعات التي كانت في رسم الدين ، قال ان هذا ومثله كان سائدا يروج على السنتهم على ذلك العهد في دار المخزن ، ولا تجد من يكذبه الا ان كان من الطبقة العليا التي تلتزم السكوت دائما في التكلم حول هذا ، لانها تدرك الامور كما هي .

وذكر ان السلطان حين جيء له بتلفون وقطار صغير ، سرى بين كل الناس خصوصا امثال هؤلاء الجهلة ، انه كافر بقبوله ان يصنع ما يصنعه النصارى ، فكثر ذلك حتى في نساء القصر ، وكن أجمد من هناك على القديم كأنهن فقراء الزوايا رجعية وتزمتا .

حاورته يوما محاورة طويلة فيمن هو المسؤول عن انهيار (المغرب) اهو السلطان الذي كان لا يخفى عليه شيء أم الامة التي ابت ان تستفيق والعالم كله مستفيق ، فكان هو يميل الى ان السلطان ينفع حقا لو تنبه للاصلاح المنشود كما ينبغي ، ولكن نفعه لا يكون الا بمقدار ، كما أنه ان مشى في ذلك خطوة سيلقى عراقيل كثيرة من كل جهة ، ثم قال ان جمود ذلك العهد وجهله السائد بالعالم المتمدن وما وقع فيه ، لا يمكن ان يدركه كما هو من نشأوا بعد ذلك في (المغرب) ، ولذلك لا يقدر ان يعذر اصحاب ذلك العهد الا من كان عاش فيه واستيقن انه لا يمكن ان يكون الا كذلك .

وذكر يوما ان كل الصدقات التي تجود بها الايدي من نساء القصر كانت توجه الى السجون يتعاون بها المسجونون ، وكذلك الحال في طعام العقيقات وطعام الحناء وطعام تخريج سلكة القرآن ، فتفيض بذلك الخيرات على المساجين فينة بعد فينة .

كان يذكر كثيرا اقتصاد المولى الحسن في كل شيء شيء ، حتى في الحبوب والزيت والماعون والفرش فضلا عن المال ، وكان يقدر ما يتركه وراءه من بيت المال الخاص - فضلا عن بيوت المال العامة - من الناض بنحو عشرين مليونا من الريال ، قال وقد بقيت مطامير حبوبه الى زمن الاحتلال مع ان الانفاق منها لا ينقطع في العهدين العزيزي والحفيظي .

وقد حضر لموت المولى الحسن ومبايعة المولى عبد العزيز ، فيحكيه كما يأتي : كان خرج من (مراكش) ، ومعه أولاده عبد الحفيظ وعبد الكبير بعد ما قدم امامه المولى عبد العزيز الى (الرباط) ، قال فحين نزلنا دار ولد زيدوح ، كنا نسمع بضعف السلطان غير انه يتجلد كثيرا ، فلم يتخلف قط عن الجلوس المعتاد للحكم بين الناس في وقت المخزنية وعن الصلاة في المسجد الى المغرب التي مات في ليلتها ، فلا ادري أذكر أنه صلاها مع الناس أم قال انه لم يصلها وأيا كان ، فقد ذكر انه قام من مجلسه العام متأثرا غاية ، فأعانه أحمد بن موسى حتى احتجب عن العيون فاستلقى من يده الى الارض فصار أحمد يناديه سيدي سيدي ، فقال له لا حياة لمن تنادي هكذا بهذه اللفظة ، ثم حملته الجواري ، قال فبعد حين من الليل ارسلني المولى عبد الحفيظ لأتجسس خبر مرض السلطان فدنوت من افراكه فلم ار شيئا غير عادي - احسب انه قال هذا او مثله - ثم رجعت وقد هدات نفوسنا فاصبحنا في اليوم راحلين ، والسلطان في محفته ، واحمد يصدر الاوامر عن رأيه ، ويستدعي حينا بعد حين بالبرادة للماء ، فكنت حين الارتحال على فرسي اجري في أطراف المعسكر اتصيد الحجل ، فمر بي الحاجب احمد وهو متجهم عابس فزجرني عن الاسترسال فيما انا فيه ، فمشينا ذلك النهار مشيا حثيثا ، ثم اصبح اليوم

الثاني ، وقد احكم احمد امره ، وداخل من شاء ممن كان في ايديهم بعض الامر ، وقد كان اوعز الى الجواري المطلعات على وفاة السلطان وسط الليلة ان لا ينبسن الا ان اردن ان يتخطفهن آل (تادلة) فيسوقونهن سبايا ، فأمسكن متجلدات عن الصراخ ، ولكن مع كثرة الاحتياط في الصمت صار الناس يتوهمون وقوع شيء ، فاجتمع الجند ورؤساؤه ، وقد ابرم احمد مع رئيسه الامر وانفق مع المتفقين على البيعة للمولى عبد العزيز ، فحين اجتمع الناس ووقف كل واحد في مركزه ، وقف ابن العلام ، كما احسب انه هو الذي ذكره ، فأعلن ان رحم الله المولى الحسن ولينصر الله المولى عبد العزيز ، فأعلن الاعوان بالتحية بصوت مزعج اكثر من العادة ، تلاه في نفس الدقيقة الزعاق الهائل بالابواق الجندية وبفرقعة المدافع بكثرة هائلة ، والمقصود بتلك الصورة المرتبة على ذلك شغل الناس ، وهزهم بما يسمعونه فيؤثر فيهم ، ثم خرج الامر في الدقيقة ايضا الى الشرفاء اولاد السلطان الحاضرين ليبايعوا اولا ، فأول من خوطب بذلك المولى عبد الكبير فثار في وجه مخاطبه ، فقال له لا والله الا بعد المشاورة والمداولة ورؤيه ما هو الاصلح ، فالتفت احمد بن موسى فقال ما ذاك ؟ فقيل له ان المولى عبد الكبير ابى ان يبايع فقام بملاطفة فأخذ بيده فقال حاشا سيدنا ومولانا سيدي مولاي عبد الكبير ان يخرق الاجماع ، ثم قال له ندخل لترى سيدنا المرحوم فادخله الى أفراك فشغله برؤية جنازة السلطان وبالبكاء حوله ، فقدم المولى عبد الحفيظ فلم يمانع ، فتتابع الحاضرون فتم كل شيء بملاطفة الداهية احمد بن موسى ، هكذا طويت الصحافة الحسنية ، ودخلت في التاريخ .

قال انني لاعجب من تلك الدقيقة ، فقد يؤتى لي فيها ان غشاوة كثيفة سربلت الافق ، فقد انهتك الحجاب الذي استولى على النفوس من هيبة السلطان ، حتى لتحس بأننا دخلنا في طور آخر جديد لا نعرفه ، خصوصا منا نحن النشء الذين كان العهد الحسني لنا عهدا ذهبيا هائلا ، فقد انكرنا كل شيء بعده ، كما تنكر لنا كل شيء ، حتى المخزنية الحسنية قد انحلت عروتها يوم ذاك ، وكاننا كنا لا نعرف ما هو الموت ؟ حتى مات السلطان فتجلى لنا

الموت بأعظم الفواجع ، حقا أقول انني لارى ذلك اليوم هو الفارق بين العهد القديم المقدس في انظارنا ، وبين عهد آخر نندفع اليه ونحن ايتام قد فقدنا من السلطان والدا علينا شفيقا .

قال عهدي بأناس من المستخدمين في كل ايام المولى الحسن ، قد فارقوا المعسكر ذلك النهار الى ديارهم ثم انخنسوا فيها ولم يرجعوا بعد الى أعتاب الحكومة الى ان ماتوا ، والحاصل ان اللولب الذي به تتصل تلك المسامير كلها قد تكسر ، فتطايرت شظايا شذرمذر .

كان احمد غسل السلطان في متوفاه بدار ولد زيدوح وكفنه وجعله في صندوق ، وكان رحمه الله بادنا ، فتنتقل به البهائم فيبدل من بهائم الى اخرى مع انه في المحفة ، وقد ادار به حاملوه عطورا عالية غير ان رائحة الجسم المتحلل قد غلبها فلم يصلوا به (الرباط) حتى لا يكاد مزاولوه يقربونه الا بمشقة .

بادنا

سبقت سوابق للمولى عبد العزيز فأنهى اليه الخبر فخرج ليلاقي جثة والده فكان بكاؤه حارا مرا الى الغاية ، فلم يطق ان يحبسه بين الناس ، قال وعهدي به حين خرج لملاقاة الجيش ، وقد تنظم الجيش على مراكزه ، فكان اول ما سبق اليه صاحب المظلة والموكب الخاص من الحرس واصحاب الوضوء ، ثم توالت الجيوش على مراتبها تستدير به بعد ان تحيي التحية المعتادة ، فحين انتظم المعسكر كما هو تقدم به الى (الرباط) ، ثم ذكر بعد ذلك كيف ألقى القبض على أولاد الجامعي في (مكناس) ، واسهب في ذكر سبب تحامل احمد عليهم ، ولا استحضر من ذلك شيئا ، قال ، وكنت مع المولى عبد الحفيظ دائما ، وانا أحسب من جملة حاشيته ، وقد صاحبنا ركاب السلطان الجديد الى (الغرب) حتى رجعنا معه الى (الحمراء) ، فذكر كيف ان أحمد ساق معه الباشا حمو من (مكناس) وقد نزعه من مركز هائل كان فيه ، فألقاه في (تارودانت) ، وهكذا اصنع بكل الاوتاد في المملكة الحسنية ، ثم ذكر كيف فتك بقبيل في جهة (الشاوية) اظن ، وكان يفصل ذلك كله تفصيلا .

ما يذكره عن العصر العزيزي

ثم ذكر الثائر الرحماني ـ وهو مشهور ـ وانه لما أجفل امام الحملة السلطانية فر الى مشهد (سيدي علي بن ابرهيم التادلي) فجيء منه بأمان ،قال وعهدي به حين ادخل الى المعسكر يطاف به على جمل فتناول شريف مستحمق حجرا فرماه به فدمغ رأسه فتدفق دمه،فحين رآى أحمد ذلك غضب وامر بالفاعل ان يقرن مع المساجين في السلاسل ، قال وكانت سلاسل المساجين لا تفارق المعسكر السلطاني من قديم ، والبخاريون الغلاظ الاكباد حرسها الخاص ، فيا ويل من ساقته الاقدار اليهم فانهم لا يعرفون ما هي الشفقة ، ثم جلس المولى عبد العزيز للثائر ، فقدم اليه والناس مستديرون ، والمخزنية عامرة ، فصار يخطب عليه بلسان لا يتلعثم ، ويندد عليه ، ويذكره بكل ما أنعم عليه به السلطان المقدس ، فذكر نصبه قائدا في (درعة) ومثل ذلك ، فادى الدرس كما ينبغي ، فتعجب الناس كلهم من ذلاقة لسانه ومن ثباته مع صغره ، وان كان الناس لا يشكون في ان الذي لقنه ذلك الدرس هو أحمد بن موسى المستبد ، وقد ذكر من غنى (الرحامنة) شيئا كثيرا اذ ذاك ، وقال وقد نهبت الجيوش لهم من الغنم ما استغرب ان يكون مثله في قبيلة كبيرة ، مع ان المنهوب منهم انما هم بعض (الرحامنة) ، فكيف اغنام الجميع كثرة ؟

كان يذكر المولى عبد العزيز ويقول انه وان لم يكن الا ابن ثلاث عشرة سنة يوم توفي والده ، فانه شاب فرهد قوى بادن يملأ العين فكأنه ابن عشرين، والخصال البارزة فيه اذ ذاك اثنتان : احداهما غيرته الشديدة على حرمه ، مع

عفته الغريبة عن غيره، ولم يؤثر عنه ناقصة من ذلك ، وثانيهما محبته للهو وامعانه فيه ، ولا غرو فانه لا يزال صبيا ، وقد كان احمد حاول ما شاء الله ان يرده عن ذلك ، ولكونه لم يمنع عنه احدا اولا ، كان يتصل ببعض المنشدين والموسيقيين من عرض الناس ، حتى بلغ احمد انه فتح يوما خزينة ذهبية من المخازن المالية ففرق على عمي يعتادونه ، كثيرا من اللويز الكثير ، فأوعز بالقاء القبض على أولئك العمي واستخلاص المال منهم ، ويقال ان المولى عبد العزيز سأله عنهم فقال له سقط عليهم السقف فهلكوا ، فكان ذلك هو السبب حتى نقل كل ما في دار المخزن من الاموال الى داره بالباهية ، فصار الكل محفوظا ولم يفرط في دانق منه ، وذلك ايضا هو السبب حتى وضع يده على كل شيء وفرق اهله على رئاساتها ، حتى باب السلطان نصب فيه احدهم ، فلا يلتقى بالملك الا من اراده ، قال : وتحت يدي قبل اليوم بطاقة كتبها المولى عبد العزيز ، الى احمد مضمنها طلبه ان يرسل له آلبين موسقيين يؤنسونه ، فاجابه على ظهرها كنت احسبك تتكف على ذلك ، وسالتقي معك ، او مثل هذا الكلام الجاف ، قال ثم ان هذه البطاقة ذهبت فيما ذهب في مكتبتي يوم نفيي - وسنذكر ذلك - قال وكانت العناية بتعليم المولى عبد العزيز لا تزال قائمة حوله بعد ما بويع ، ولكن معلوماته من الضؤولة في مكان ، لتفريط والده فيه ابان تعليمه ، وأمه تركية كانت احب النساء الى والده ، ولذلك نال ما نال من الدلال عليه ، ثم كانت الميوعة في الارادة مصاحبة للمولى عبد العزيز في كل عهده ، قال والحقيقة ان أصلب اولاد المرحوم هو المولى عبد الكبير فانه غريب عجيب ، وقد بدا له بعد هذا العهد ان يطالب بحظه من الرئاسة ، فخرج عن الاوامر فأداه ذلك الى ان فر في صحراء (تافيلالت) - كما اظنه ذكره - فقطع فيافي مقفرة عطشى لا تقطعها القطا ، حتى اتصل بالحكومة الجزائرية ، وقد أنكر لها ما هيته ، فشكت فيه ، فتركه احدهم حتى طافت به سنة فناداه باسمه المولى عبد الكبير ، فبادر فقال نعم ، فانكشف الغطاء فاعتني به حتى رجع ، واحسب هذه القضية وقعت في الهزاهز التي كانت بعد ثورة بوحمارة او في العهد الحفيظي ، وكان يذكر عنه متانة الجسم وقوة الروح ، ثم يتلوه

في ذلك المولى عبد الحفيظ كما سيذكر بعد ، واما المولى عبد العزيز فقد ظلموه لانهم قدموه لما لم يخلق له ، هذا ما قال ، ثم قال غير ان له آثارا قائمة في (فاس) من بناء قصر عجيب فيه ، يدل على سمو همته من تلك الناحية .

ذكريات عما يقوله عن احمد بن موسى

قال كان اشبه الناس بالمولى الحسن في تنظيمه وفي اشتغاله بالجد ، فلم يكن يعرف الا الخدمة والعمل ، حقا كان مستبدا ولكنه اهل لذلك في عصر ليس فيه مثله ، فقد حاول ان يبقى كل شيء على وفق ما كانت عليه المخزنية أيام المرحوم ، فكانت كل معاملاته للسلطان المولى عبد العزيز امام الناس معاملة تمشي على النمط الحسني ، فقد كان لا يدخل بعد امتلاء المخزنية حتى يخرج قائد المشور فينادي اجب سيدي ، يا أحمد ، هكذا بهذه العبارة من غير ان تكون هناك سيادة له ، ثم يدخل فيلقنه كل ما يصنعه ، فيريه كيف يجيب كل طلب قدم له ، وكيف يوقعه ، بعبارات يحفظها له ، ثم كيف يالقي فلانا وفلانا كل على حسب مكانته ، وما يقال له وما يجاب به طلبه ، ثم لا يخرج السلطان عن ذلك حرفا ، والناس يتعجبون من ذاكرته التي يتلقن بها الدرس ويقولون لو أقبل على التعلم لكان له تفوق ، ثم بعد خروج احمد يستدعي الناس على طبقاتهم على وفق ما كان أيام العهد الحسني ، فيتم كل ذلك أحسن تمام ، ثم كان استبداده هو الذي أجتث الرجال الكبار الحسنيين ، حتى لا يذكر معه احد ، فكان وحده المبدىء المعيد ، والمصدر المورد ، لا تكون كبيرة ولا صغيرة الا باذنه ، وكان اخوانه واهله على كل الادارات ، ولكنه مع كل ذلك لا يظهر الا بمظهر المنفذ، فكل ما سأله يقول حتى نستشير سيدنا، ولا يمكن ان يتخطى ذلك ولو غلطا ، وقد فرط يوما من انسان طلب منه شيئا فأجابه بذلك ، فقال له انت سيدنا ، فاستشاط احمد غضبا وناله منه ما ناله ، وكان صموتا لا يحب الكلام حوله ، فتكون دار المخزن مكتظة الى طفافيها ثم

لا تسمع صوتا ولا تحس ركزا ، وان هناك الا اشارات ، وقليل من الهمسات،
وكان يجلس دائما امام مكتبته أي منضدة كتابته ، في بنيقة الوزير الكبرى ،
فكان بينما هو مكب على الكتابة او على التوقيعات او على قراءة ما يقـدم
له ،يجيل فينة بعد فينة عينيه وهما كعيني العقاب في ذلك البراح،فيرى الداخل
والخارج ، وقد اطل عليه مرة انسان غريب ، فصاح به ألم ترني قط ، فامر به
الى السلسلة ، وكذلك لا ينسى كل ما قيل له او قاله ، قال الحاكي قدمت مرة
من عند المولى عبد الحفيظ وهو خليفة على (نادلة) برسائل ، فذكرته اياهـا
فقال لا تحتاج الى تذكيري فلن انسى ما هو وظيفي - او كما حكاه قاله له مما
يدل على ما تقدم - وكان بطاشا لا يهدأ الا بالفتك والسجن ، وسوق مسجون
اليه احب من سوق حمل مال ، ثم لا يطمع في تسريح مسجونه ،وبذلك البطش
تمهد له ما أراد ، وارتجفت منه الافئدة حتى بلغ الامن مبلغا عظيما ، وكثيرا
ما قال الحاكي ، لم اشاهد الى الآن بعد الاحتلال مع ما بلغته الحكومة مـن
بسط الامن العام ، مثل ما كان في تلك الفترة بين سنتي 1314 هـ - 1317 هـ
حول (مراكش) ، فلا تسمع بلص ولا بمتسور للديار .

كان طول ايامه من الصباح وقت الضحى في دار المخزن الى الزوال ، ثم
من بين الظهرين الى قرب الغروب ، مدمنا على العمل ، ثم ان كان في داره ليلا
عشية او صباحا لا يفتـر ايضا ، وكان في كل عشى يلاقـي الواردين الى ان
يمضي ما شاء الله من الليل ، وكان ممعنا في مص اموال العمال بكل ما امكن ،
فهو الذي ابلغ البيع والشراء للقيادة في أيامه نفاقا عجيبا ، وذلك وان كـان
قبله غير أنه لم يبلغ مرتبة ما في عهده ، فقد كان المولى الحسن نفسه ربما يفعل
ذلك لمصلحة ، ولكن ذلك مقصور على بعض الاحيان في بعض قبائل ، ثم لـم
يكن يقبل ذلك الا في القيادة ، واما غيرها من المناصب فلا ، ثم ذكر انه كان
كذا وكذا ، فثار ثائره فوقع على ذلك ان لا يقبل ذلك الرجل بعد اليوم في ايـة
كذا وكذا ، فثار ثائرة فوقع على ذلك ان لا يقبل ذلك الرجل بعد اليوم في اية
مرتبـة أصلا ، وان لا يقبل حتى فـي العدالة وفي الامامة ، زجـرا للناس ان

يتقدموا الى هذا المنصب الشريف بمثل ذلك الوجه القبيح ، هذا ما كان ، ثم لما جاء أحمد فتح الباب على مصراعيه ، فأتى الوادي على القري ، فظل وبات على جمع الاموال ، وكان مترفعا عن كل احد ، لا يقبل ان يشاركه احد ، وكان منانا حتى انه قال لانسان يوما وقد قال له انني لم انتفع في عهد وزارتك هذه بشيء ،فقال لمن بلغه ذلك، كفى انه لم ينله منا اي سوء،وقد سمى الحاكي هذا الانسان ، وكان يتتبع كل الكبار في دار المخزن فيلزمهم ان يكونوا تحت امره ، ثم يلاحظ مع ذلك كل شيء ، حتى انه مرة قال شيئا عن اذن السلطان ، فنفخ بعض الكتاب شدقه من حيث يحسب ان احمد لا تراه عينه ، ويقصد بذلك ان كل ما قيل انما هو منه اي من أحمد لا من السلطان،وبعد ذلك بقليل ، وقف ايضا لسبب خاص خطيبا ، فكان من بين ما قال ، ان سيدنا لا يخفى عنه الناصحون ، ولا كل الذين يتلكؤون في النصيحة ، حتى انه ليعرف من ينفخ اشداقه ، فادرك الكتاب من هو المقصود ، فعرتهم قشعريرة ، وكان لكثرة الحاحه على العمل لا يريح نفسه ، ولا يجد وقتا ينفرغ فيه لشهواته ، فعذلته اخت له تتجرأ عليه ، فهيأت له جواري بارعات ، فظل معهن يوما ثم تناساهن وقد غلب عليه طبعه .

قال كان حديديا في كل شيء ، ولا يزال يوم الصاعقة مذكورا بكل لسان ، وذلك ان السلطان تهيأ يوما للخروج الى خارج (الحمراء) وقد بين السبب للخروج ، ففي الدقيقة التي خرج فيها السلطان ، والحاشية واقفة والعساكر مصطفة اومض برق فتلته صاعقة قاصفة سقطت على بعض من وقفوا امام السلطان فقتلت بعضهم ، ثم انهمرت معها الامطار كل انهمار ، هذا كله في لحظة ، فلم يرع ذلك قلب احمد الحديدي ، مع ان كل الحاضرين انخلعت قلوبهم ، كما يحصل لكل انسان في مثل ذلك ، فقد تقدم هو ، وامر السلطان بالمسير ، والرعود ما زالت قاصفة ، والبروق لا تفتا مومضة ، والامطار منهلة ، فتقدم الموكب بكل رزانته فدفع كل شيء امامه ، فكان ذلك عند الناس عجبا ، فقرأوا من ذلك ان مقصوده ان يعرف كل الناس ان ارادته لا ترتد باي شيء ، فلا صواعق السماء تردها ، ولا دسائس الارض تعوقها .

قال كان الجهال اذ ذاك حين رأوا ما راوا من احمد يظنون انه يحاول ان يكون بنفسه ملكا ، لما يرونه من بعض افعاله كأمره يوما كل الجيوش والكتاب ان يخرجوا جميعا لملاقاة ولده العباس ، وقد جاء من سفر ، والحقيقة ان الرجل مع استبداده ، كان يريد الخير بالمملكة وناهيك انه وقف امام الخارجيـة بمثل وقوف المولى الحسن سواء بسواء ، قال وقد اخبرني نجي من ممازجيه انه كان دائما يتنهد حين لا يرى نجدة من السلطان ، ويسميه باسم لا أريد ان اسجلـه هنا ، ويدل ذلك على انه مع استبداده لا يحب ضعف السلطان الـذي استولـــى عليــه .

كان قرب اليه حاشية طويلة كالمنابهي الذي خلفه في استبداده ، فقـد كان خفيفا على قلبه لمبادرته الى قضاء اغراضه كلها ، حتى انه حين عـرف محبته للسمك ، رتب بغالا قوية بين (الحمراء) و (الجديدة) تأتي به في ليلة ، ويقدمه له ، وكان احمد ايضا أول من أظهره ، فكان اولا قائدا صغيرا على أهله، ثم صار كلما ثارت قبيلة في (الحوز) على رئيسها او كان بينهما شنئان يأمر باناطة القبيلة بالمنابهي .

قال حدثني امين احمد الخاص ان عدد الذي جمعه احمد من الاموال بلغ ستة عشر مليونا من الريالات وسبعمائة ألف ، فكان كلما تم مليون ينضد في صناديق بعضها وسط بعـض ، فنضد ستة عشـر وبقي السبعمائة الف لم تتم بعد ، وذلك خلاف نحو مليون من اللوزير الذهبي ، ثم هذا كله من الذي دخل في عهد احمد فقط ، واما ما كان مخزونا من العهد الحسني فانه مصون كما كان ، وأحسبه قال ان تلك الملايين يدخل فيها ما يرد من المراسي ، ومـا يستقدمه من بيوت الاموال من (مكناس) و (فاس) وغيرهما ، لانه حريص على جمع ذلك خوف ان يثور ثائر فيستعين به .

ثم ذكر وفاة احمد ، فقال ، ان موته كان شبه فجاة ، لان مرضه غيـــر طويل ، ولم يكن به ساقطا على الفراش ، وبينما الناس منه في هيبة شديدة هائلـة اذا بهم يخبرون بموته ، فكانوا ما بين مصدق ومكذب ، وخبر لفظـه

النفس الاخير مجموع في ان اختا له حضرت عنده بأدوية ، ثم وجد في نفسه شبه راحة ، فأمرها بالخروج وان تسد الباب دونه لينام ، ثم رجعت بعد حين فوجدته ميتا ، ولكنه مع ذلك لم يمت ، هو عند نفسه على غرة ، فانه كان دفع لاخته المتقدمة ولانسان آخر - كما أحسب انه حكاه - مفاتيح بيوت المال وطابع الوزارة ، ووصى كل واحد منهما ان يمكن ذلك يد السلطان نفسه، وان يقول له ها هي ذي الامانة كما كانت ، قال ، وهذا يدل على ان الرجل يريد الخير للامة ، وبعد خروج روحه واطلاع اخته على ذلك ، دخل المنابهي لانه لا حجاب دونه في مرضه وفي غيره ، فكان اول عارف بالخبر ، فطار مسرعا الى باب السلطان فطلب الملاقاة باسم الفقيه - وبذلك يدعى احمد عند أصحابه - فبمجرد ما لاقى السلطان أسمعه النعي ، فخر السقف على المولى عبد العزيز ، فلم يدر ما يصنع ، لكونه لا يعرف ماتى الامور ، فشجعه المنابهي ، فقال له ان الامر كله لك ، فهو ينفذ أمرك ، وكلنا طوع يدك ، في كلام معسول مثل هذا ، فاستشاره السلطان في المعمول وهو يبكي احر بكاء لرقة قلبه ، فقال له يامر سيدنا باعداد الجنازة وباحتفال الناس لها وان يخرج سيدنا نفسه حتى يدفن ، فذلك هو الواجب ، وان اذن لي سيدي نفذت كل هذا ، فامره فخرج المنابهي فامر بكل شيء ، وظهر من وقته آمرا ناهيا،فذهبت الجنازة كما ينبغي بمحضر السلطان فمن دونه ، ثم سأل السلطان المنابهي عما يجب فعله الآن، فقال له يامر سيدنا بتثقيف دار أحمد وأمواله وكل أهله كما هي العادة ، ونقل اموال السلطان من داره الى دار المخزن ، فأمره بكل ذلك ، فقام به في الحين ، فالقى القبض على كل آل احمد فغرب عزهم في لحظة ، كما بزغ نجم المنابهي في اللحظة نفسها ، ولما كان أحمد قد مزق كل الرجال الحسنيين في عهده ، ولم يبق الا شبه عجائز من أدنياء النفوس ، وجد المنابهي الجريء المقدام الميدان فارغا ، فتقدم فاستحوذ بكل بساطة ، فدفع غريط الى الوزارة وهو ثقيل الراي والفهم فاستحوذ المنابهي على الحربية ، والحقيقة انه مستحوذ على كل شيء ، لانه حين امر بنقل الاموال والمتاع من الباهية الى دار المخزن ، كان سرب الى داره نحو الثلثين او اكثر ، فانشأ يبذر بلا حساب ، فانثال

كل الناس أموالا طائلة ، قال الحاكي والغريب انه اصبح ولم يرد احد ان يكون رئيسا،ثم ما امسى حتى ملك كل القلوب بعطاياه الفياضة،حتى انه زار ضريح (سيدي ابي العباس) فكان من بين العمي من نال منه عشر ريالات ، وأما صلاته للخاصة كالشرفاء آل السلطان ، فآلاف وقد وصل المولى عبد الحفيظ بأربعة آلاف ـ كما اظن انه قاله ـ وعلى ذلك فقس ، والف ريال اذ ذاك كأنه عشرة آلاف اليـوم ، وأما الكتاب ومـن اليهم فثلاثمائة الى خمسمائة ، والاعـوان ورؤساء الادارات والجند قد نالوا من عطاياه كلهم ، فكذلك كان الرجل حقـا مبذرا ، وقد بدد في ساعة ما تعب من قبله في جمعه اعواما .

احاديثه عن المهدي المنابهي

ذكر انـه كان مسجونا آخر ايام المولى الحسن في (فاس) ـ كما اظنـه ذكره ـ ثم لما انفك من العقال تقلبت به الاحوال حتى اتصل باحمد كما تقدم، ثم استولى على الناصية بسرعة بعد مـوت احمد ومسقط أهله ، والعجيب ان رجال آل أحمد تتابعوا كلهم موتا كأنما كانوا على ميعاد ، فذهبوا كان لـم يكونوا ، ثم كان المنابهي يتقرب الى السلطان بمثل ما كان احمد يمنعه منـه كأنواع الملاهي ، وكادخاله في ادارة الامور ، لانه دائما لا يستشير سواه ، فيشير له بما يحبه ، فبقي غريط بـلا فائدة أصلا ، حتى ان الكتاب والاعوان تزخر بهم دار المخزن ما دام فيها المنابهي ، فان غادرها لسبب من الاسباب بـدت كأنها خاوية على عروشها ، وكان الجند كله في يده ، فشرع هو ايضـا بما نصبه من العطاء يستجد اصحابا وحاشية فسرعان ما تكونت له حاشية طويلة تناهز حاشية احمد التي يتبعه منها أحيانا نحو اربعمائة بغلة يذهبون معه حتى يدخل داره ، كما يصاحبونه ايضا عند الغدو منها ، هكذا كان احمد ، ثم اقتفى عمله المنابهي حذو القدم بالقدم .

ثم حكى ان اعداء كثيرين من بينهم اناس يريدون الاصلاح ، نشأوا سرا ضد المنابهي ، فكان هو بدوره يستكثر في صفوفه كل من تصل اليه قوته كقواد القبائل وغيرهم،فكان اعداؤه يرمونه بانه أخلىبيت المال بتبذيره الهائل، ويرددون بينهم ان هذا هو المهدي الذي يقال انه سياتي على الدولة العلوية ، قال وكان هذا يذكر من قديم كنا نسمعه قبل وجود المهدي في الميدان ، حتى ان المهدي الشرادي المعلوم ، قال المولى عبد الرحمن ، انني لست بالمهدي الذي تخافون منه ، اظن انه هذا يورد هذا الخبر ، وان ذلك وقع بين المولى عبد الرحمن وبين الشرادي ، قال الحاكي وكان المولى عبد الحفيظ من شيعة المهدي ، وكان يناصره على الحزب الآخر ، وما ذلك الا لاحسانه اليه ، وتنفيذ كل ما يريده منه .

ثم ذكر سفر المهدي الى (اوربا) لمعالجة القضية المغربية،وانه بذر هناك ما بذر بلا مقياس ، قال وفي غيبته وجد الحزب المتكون ضده ان يعلن ما يريده فارى السلطان مقدار تهور المهدي ، وانه لا سياسة له ، فقد اتى على كل النظم المخزنية ، ثم لم يعد شيئا ، فتمكنوا في قياد السلطان وعزموا على ما عزموا به يوم يرجعون ، وقد نووا ان يلقوا عليه القبض عند نزوله في (الجديدة) ، فهالنا نحن حزبه الامر ، فانتدبني المولى عبد الحفيظ على أن انصدى لملاقاته هناك لئلا يقع في الفخ ، فقابلته وقت النزول فاعلمته بكل شيء ، فرتبنا الحيلة ، فامر بخيل من اصحابه المنابهيين ان تكون في موقف عينه ليتسرب اليها فيطير الى (مراكش) ، ليستدرك الامر ، وقد عرف انه بمجرد ما يلاقي السلطان سترجع المياه الى مجاريها بسرعة ، فاظهر لمن كانوا تعرضوا في (الجديدة) انه في غاية الاعياء ، فلم يدخل في يدهم ولا في ابنيتهم فاراد ان يستريح ، فرأوا ان لا باس من التاخير حتى يتمكنوا منه ، فاتصل بالخيل ، قال فجرت بنا خببا ، ثم لم نسترح الا مرتين ، مرة عند دكالي ، واخرى في (المنابهة) ، ثم تقدمت امامهم لئلا يسد الباب دونهم في العشية ، فوصلت (باب الخميس) في (مراكش) ، وقلت للبوابين عن اذن

مخزني تأنوا عن سد الباب ، فان عيالا سيدخلون الآن ، وعند اختلاط الظلمة وصلوا من ورائي فاندفعوا ولم يمكن للبوابين استيقافهم ، فذهبنا توا الى دار المنابهي في (القصبة) وقد كان باب خاص بينه وبين السلطان يدخل فيه اليه ، فدخل فيه بمجرد النزول ، فجلسنا نحن ننتظر ، ولا ندري ما يقع ، وبعد حين رجع مستبشرا فقال تم كل شيء ، وسيطلق القائد عيسى بن عمر العبدي الآن وكان من بطانته ، فالقى عليه القبض في غيبته نكاية به ، فقلنا له لكن لا بد أن تجد مكانك في رئاسة الحربية فارغا غدا لتجلس فيه ، والا فاين تجلس ؟ فرجع ثانيا الى السلطان فرجع فقال ان كل ذلك قد تم ، ثم امتلأت الدار بأعضاء حزبه وأصحابه ، وقد سمعوا انه جاء فجاة ، حتى المولى عبد الحفيظ فجلسنا نتعشى ، ونحن في فرح عظيم ، غير ان غريبة عجيبة دارت علينا رحاها وهي من المضحكات في باب الاوهام ، وذلك اننا بينما نحن جالسون ونحن في مقربة من دار السلطان اذ سمعنا فرقعات متعددة متوالية فاجفلنا ولا ندري ما هناك ، فقال قائل ان هذه غدرة بنا جميعا ، وهذا سلاح الجند يحيط بنا،فتبادرنا الى سلاحنا ونحن نتواصى بالاستماتة والاستبسال، غير ان أحدنا من المتثبتين تشجع فخرج وأصاخ ، فاذا بما سمعناه فرقعة الدراجة النارية ـ موتو سكليت ـ والسلطان يلعب بها في مجاري الدار ، وقد كان المنابهي اتحفه بها من (أوربا) وهي كما ظهرت في الوجود ، فأغرم بها ، فرجعنا ونحن في خجل من الوهم الذي استولى علينا جميعا لخوفنا الشديد من انهيار ما ادركناه من السيادة على الحزب الآخر ، هذا كله وقع ولم يدر احد من الكتاب ولا من الوزراء بمجيء المنابهي ، وهم في ديارهم ، ولكنهم لم يكادوا يدخلون في الصباح الى بنائقهم حتى سقط في ايدي من كانوا في الحزب الآخر ، فظهر المهدي بمظهره القديم كما هو ، ثم بعد ذلك كانت ثورة بوحمارة فذهب السلطان الى (الغرب) فتعين المولى عبد الحفيظ خليفة في (الحمراء) .

المولى عبد الحفيظ

رايت بعض ما يتعلق بمادىء حياته الى ان دخل المولى عبد العزيز (الحمراء) بعد رجوعه من (فاس) و مكناس) ، وقد علمنا ان في يد أحمد بن موسى كل شيء ، كما علمنا كيف لم يتلكأ المولى عبد الحفيظ عند البيعة مما جعل له امتيازا ، ولذلك صار أحمد عن لسان اخيه ينتدبه الى الميادين ، فبرز امره ، من ذلك انه كان في حين مرابطا في جيش ب (القاهرة) في (ادوران) ما شاء الله، ورئيس الجيش المسؤول هو ويدة الذي لم ينشب ان مرض هناك ثم توفي في (مراكش) وشيكا ، وكان الحاكي يحكي ذكريات له عن ذلك العهد ، منها ما شاهده يوما من احد الاهالي ، وقد رآى من أحد الاعوان القاء سؤال على امرأة مارة في الطريق ، فبادره مغاضبا متحفزا لمواثبته ، فقال له ما الذي حملك على هتك امرأة اجنبية عنك؟ قال ثم سألت فعلمت ان للمرأة عندهم احتراما كبيرا كعادة غالب (سوس) ، فلا يقدر احد ان تمتد يده الى امرأة حتى يثور عليه الناس من كل جانب ، وحكى في الموضوع ان اصحاب القائد عبد الملك المتوكي كانوا في زحف مع جيوش الحكومة حين مقاتلة بوحمارة ، فانهزمت قبائل بوحمارة فخرجت النساء هاربات من القرى فساد النهب ، فاذا بأحد الجند يجرد امرأة ، فثار عليه اصحاب المتوكي ببنادقهم قائلين ، لا والله ما تمس أية امرأة هنا ، فازالوها وما معها من يده ، أقول ان هذه عادة السوسيين التي ادركناهم عليها ، فللمرأة مكانة ، ولا يقدر احد ان يمد اليها اليد حتى في حالة الانهزام ، ولذلك يخرجن اذ ذاك بما يخف من الحلي والرسوم فينجو ذلك بسببهن ، وذلك امر عادي ضروري عندهم ، غير ان اليوم صارت الحالة تتغير بتغير كل العوائد .

كم من انسان كان يشكر الوطنية بلسانه ، ولكنها لم تتصل بجيبه ، فأما أن يبقى الوطنيون بلا بطون تسغب ، واما ان يماشوا الدهر ، ما دامت الامة لا تنظم شؤونها التي تقوم بالمطرودين من معاشاتهم ، فيتضورون جوعا .

بعد حين تهيأ له أن يراجع نفس وظيفته في محافظة (مكناس) حيث لا يزال الى الآن .

وجدت له عندي بطاقات ، منها هذه :

سيدنا الفقيه الاجل شيخنا سيدي محمد المختار السوسي ، أما بعد : فكيف أنتم ، وكيف أحوالكم المرضية ، فاننا نقدم لكم تهانينا بعيد الاضحى ، وقد اشتقت اليك جدا ، وفي العزم أن ازوركم ، ويدكم عندنا عظيمة ، ولو كانت أمتنا أمة حية لكان لكم فيها ما يليق لامثالكم من العلماء المصلحين ، ولكن صبرا ، فجزاء الله أفضل من كل جزاء ، غير ان الامم اذا لم تكن أهلا للاصلاح لا يكون فيها المصلحون ، ونطلب الله أن يعينكم ويسددكم .

....

حيا الله الاخ المعروفي وبيباه ، فواشوقاه الى لقياه (1) .

---

(1) اتصل بنا نعيه وأنه توفي : 23- 2- 1361 هـ .

انسان ما يستغرب ، حتى انه كلما بدرت من ذلك بادرة من احد اهل المجلس، يقول أولا لا اله الا الله ، ثم ان لم ينكف المتحدث خرج وان كان ما كان ، كما انه محافظ على الصلاة في أول الوقت ، ولا يعتبر درسا ولا غيره ، ولم يكن يقول بالطرق الصوفية غير انه لم يكن يتكلم في اهلها ، واحسبه قال توفي في سنة 1330 هـ ، ويذكر من جرأة محمد الخضر كثيرا ومن علمه وتبحره،وذلك من الرجل معلوم ، وما أنس لا أنس ما كان ذكره به قرينه اذ ذاك الشيخ ابو شعيب الدكالي في ليلة بداره ، فقد وصفه وصفا مدققا ، ولا يعرف الفضل لاهلـه الا ذووه ، وذكر الحاكي ايضـا عالما سماه عليا الدمناتي ، كما أظـن ، استقدمـه الخليفة ياخذ عنه المعقـولات ، كما ذكر سيدي بوشعيب الشـاوي وانه أقطعه دارا بـ (مراكش)،كما انه اقطع للعلماء الآخرين خصوصا الشناكطة اراضي فسيحة ممرعة في أحواز (الحمراء) عينها من الاملاك المخزنية ، ويذكر ان أحد الشناكطة كان مبذرا ، فكان كلما وصله بشيء يتلفه في التزوج والطلاق بسرعة ، واحسب انه هو الذي ذكره بكثرة المرض ، لانه مولع بالمباعلة ، وكان يتوضأ صباحا بالبارد ، ولا يجد الماء السخين ، فلكثرة حرص المولى على صحتـه للمدارسة ، اكترى على يـده حماما حبسيا فدفعه لانسان فأمره بـان حظه من ذلك ان يوجد دائما قبل وقت الصلاة بقليل ماء سخينا يذهب به لدار الاستاذ فيدق عليه فيدعه له ، ثم كان احتباله بالعلماء محركا للنشاط العلمي في (مراكش) ، فكان مرة حضر في المواسين ختما للفقيه محمد بن ابرهيم السباعي في مجلس حافل ، وكان من اندى الناس للعلماء ، لا يعرف كيـف يعطيهم ، ولذلك بمجرد ما سمع بورود الشيخ بوشعيب الدكالي الى (مراكش) من (الحرمين) زائرا لاهله بـ (المغرب) ، حتى ارسل اليه فأقام له حفلة فـي داره ألقى فيها درسا حافلا ، فبهرته منه حافظته وفصاحته ، فحين خرج مد له صرة فيها مائتا لويز ، ثم كانت معاملته له هي التي جذبته الى (المغرب) حتى ذهب فاتى بأهله من (الحجاز) .

كان الحاكي يذكر كل هؤلاء العلماء بأسمائهم ، وما هي منزلة كل واحد عند المولى ، ومقدار ما يعطيهم ويفيض في ذلك فيضا .

اقول ان امتبال هذا الشريف بالعلم شيء غريب جدا ، ولعله لم يكن لملك من اهله تلك المقامات ازاء العلماء ، الا ما كان من المولى الرشيد وما يذكر عنه في ذلك ، وقد جاء الحاج الحسين الافراني بقصيدة جيدة من قول الشاعر الافراني ، فقدمها له عند بيعته ، فأجازه كما سمعت بأربعة آلاف ريال ، وبكسا كل اهله ، وما يتبع ذلك مما سماه السلطان للمجاز هدية السرور الى الاهل ، وفيها عشرات من الكسا والنعال ، وهذه لعمرى صحيفة فخرية ينبغي أن لا تنسى ، ثم لم يزل ذلك غالبا على المولى عبد الحفيظ الى آخر لحظة من ايام ملكـــه .

ثم يذكر الاسباب التي دفعت به الى ثورته ، فذكر انه بمجرد ما كان خليفة في (مراكش) واستقر السلطان في (فاس) ، نشات ضده دعايات سيئة في حضــرة السلطان .

اقول : لعل ذلك من بنات الشنئان المتقدم ، فقد علمنا انه كان منتشبا في ذلك ، وانه من حزب المنابهي ، ولعل المنابهي هو الذي وقف له حتى تعين خليفة في (مراكش) ، ثم أن المنابهي بعد خروج السلطان من (مراكش) لم يثبت امره كثيرا ، فقد رأيناه متوجها الـى الحج ، ثم اضمحل امره بالكلية ، ولم استحضر ما كان يحكيه في هذه النقطة ، وانما الذي استحضره انـه يزعم أن سبب ثورته كـان ناشئا من تحامل بعـض حاشية السلطان عليه ، وانه أول يوم لم يكن ليخطر له ذلك في بال .

قال كان لنا هناك عيون يكاتبوننا بكل شاذة وفاذة ، لا تخفى عنا خافية ما يقال حولنا ، وكان باشا (القصبة) بـ (مراكش) ابن كبور الدمناتي ناصحا للحكومة ، وقد اوعز اليه ان يحول بين الخليفة وبين أي تظاهر ، فيؤثر فينا ذلك ، فنستكثر من الاصحاب ، ونقف حول المولى حارسين معولين على أن لا نسلمه ، حتى اننا في مبدأ الامر ، وقد رأينا من الباشا شيئا لا يعجبنا ، قلنا للمولى دعنا نفتك به من حيث لا يشعر أحد ، فقال ان ذلك غير حسن ، ولكن علي ان اجعله من حزبنا ، فانتهز فرصة عقيقة فارسل الى الباشا يستدعي اهل

داره لحضور العقيقة ، فلاقوا عنده من الافراح والهدايا ، ما رجعت به قرينة الباشا حفيظية النزعة ، ثم لم تزل بزوجها حتى مال اليه ، والذي أعاننا أيضا في استمالته بعد العقيقة ان عيون الحكومة كتبوا اليها بانه مخلص للمولى عبد الحفيظ بدليل أنه يداخله بأهله ، وقصوا القصة ، فارسلت الحكومة توبخه توبيخا عظيما ، فكان يلاقي كل اجلال وليونة منا ، في حين أنه يلاقي كل مغالظة من الناحية الاخرى ، فبسرعان ما اخلص لنا فصار يكتب رسميا الى الحكومة بأنها واهمة في نواياها ازاء المولى ، فانه سليم الطوية ، ليس في باله الا كل خير ، فاكثر من مثل ذلك حتى شك السلطان وتوقف ازاء ما تجسمه له تلك الحاشية التي تسعى بسوء ، فأراد ان يعرف الحقيقة ، فبعث لجنة تحقق الامر كما هو ، فلم تكد تنزل بـ (الحمراء) حتى تلقاها الخليفة بكلتا اليدين ، فوالى لها حفلات كاملة في المنتزهات ، ويسرب الى أفرادها الهدايا ، ويكثر الثناء على السلطان ، وينفض يده في كل ما يرمى به ، فبقيت اللجنة ما بقيت وهي غريقة في كرمه وفي ضيافاته ، ثم رجعت وقلوبها مرفرفة حوله ، فانهت الى السلطان انها استيقنت ان كل ما يرمي به الخليفة بهتان ، فهو لا يزال حريصا على جبر الخاطر من كل ما يراه من رجالات الحكومة ، هذا والحكومة اذ ذاك تزداد في كل يوم ضعفا ، والهزائم تتوالى عليها امام بوحمارة ، فارتبكت غاية الارتباك ، فكانت انظارها في المولى عبد الحفيظ متناقضة ، فحينا تريد ان تعلي شأنه في (الجنوب) وحينا تريد ان يضمحل أمره هذا ، وهذا المولى غير واقف ينظر مكتوف اليد ، بل قام بعزم يعمل بما يؤيد مركزه ، فظهر مظهرا قويا وقد داخل القبائل (الحوزية) بل و (الدكالية) وما اليها ، فساورت منه الحكومة حينا مخاوف ، فأرسلت جندا مع فلان – وسماه – قال فلأوعزنا الى من سيمر عليهم من القبائل المخلصة لنا ، فردته على عقبه ، ثم كان مجيء المولى عرفة لهذه الغاية نفسها ، فلم يتأت له ما اراد ، فمر حتى نزل في (شيشاوة) ، وقد كان يأتي بكل تفاصيل ذلك .

ثم حكى قضية قتل الفرنسي الذي احسب اسمه موشان في (مراكش) ،

وذكر ان السبب الذي ينبغي ان يعرفه التاريخ وان لا يرتاب فيه ، هو ان طبيبا المانيا كان يدس الدسائس ضده ، فهو الذي كان قال لبعض المغلفة قلوبهم ان فلانا الفرنسي (وكان ايضا طبيبا كما أحسب انه وصفه به) سيرفع راية اهله ، والحقيقة ان ذلك انما هو علم ابيض مما يالف أن ينصبه الاطباء ، فلم تكد العامة ترى ذلك حتى ثارت بحنق شديد ـ كما هي عادتهم اذ ذاك مع كل ما هو أجنبي ـ فوغلوا عليه ففتكوا به ، فجاء الصريخ الينا بـ (القصبة) ، فركبت انا مع أناس على الخيل ، فوجدنا دار الاجنبي كالرمانة ، وقد تدفق الناس اليها تدفقا شديدا حتى تزاحموا فيها ، وحين أقبلنا عليهم ، امرت اصحابي ان يخرجوا البارود من غير ان يضربوا احدا ، والمقصود القاء الرعب في روع العامة لتتفرق ، فاجفل من في الدار ، فحصل لهم ما حصل من الزحام ، ولا أحسبه الا ذكر ان هناك مصابيين بكثرة الزحام ، ثم لما تفرق الناس ، وذهبنا بلغنا ايضا انهم عادوا ليحرقوا الجثة ، فرجعنا ايضا ففرقناهم ، وكان يذكر ذلك بتفصيل ينفع في الموضوع ، لانه شاهد حال ، ولما كانت لهذه القضية المشؤومة أثر بارز في الاحتلال ، كان يجب ان تبين كما هي ، لان الحاكي يعتاد ان يقول الحقائق كما رأيت من غير ان يتحامل على اجنبي ولا أن ينصر اهليا ، لان ما عسى ان يحكى عنها في الجرائد خارجا اذ ذاك لا بد فيه من مخالفة للحقائق على ما هو معهود من أمثالها ، ولذلك ناسف كل الاسف حيث لم نتمكن في ذك كما ينبغي ، غير انه يكتفي الآن بهذا السبب الاصلي ، وان القضية من بنت الدسائس الاجنبية لا من تعصب الاهالي الجهال بحالة الدول ، وبمركز (المغرب) اذ ذاك بينها .

ثم ذكر ثورة (مراكش) السولضية،وذلك انه ورد من حضرة السلطان سكة جديدة من النحاس تسمى بسولضي،فحوول عن اذن رسمي نشرها في (الحمراء)، فقام انسان سماه من عملة صنعة النعال وقد اجتمع اليه امثاله ، في ضد ذلك ، فاعتصبوا وسدوا الاسواق ونظموا حالهم في ذلك ، وكان هذ الانسان معلوما بذلك ، يرأس امثال هذه الاعتصابات ، وقد كان سبق منه قديما أن راس

الاعتصاب الكبير ضد ابن داوود أواخر أيام المولى محمد بن عبد الرحمن،وذلك مشهور في التاريخ ، للعباس القاضي مفصل ، قال ، وكنا نحن في الحقيقة في تلك الساعة ، لا نكره ان نرى اشمئزازا من العامة لما يصدر من ناحية الحكومة ، ثم ذكر ان نهاية ذلك باجتماع الناس في (الكتبية) ، فذهبت اليهم مع أناس عن اذن الخليفة ، ثم ألقينا القبض على ذلك الانسان فوجهناه الى حضرة السلطان ، فسجن في (مكناس) وكان ايضا يفصل هذه تفصيلا .

قال ثم لما اشتدت الازمة ، وتمكنا من ناحية القبائل ، ونحن لا نختار من القبائل الرؤساء الرسميين فيها بل نضع ايدينا على اضدادهم وعلى رؤساء النهاب منهم ليناوئوا الرسميين ، فيضعف مستند الحكومة منهم ، ثم دهم الناس احتلال (الدار البيضاء) فثارت القلوب ، وجحظت العيون ، ونغلت الصدور من الحكومة ، وقد ذهبت سمعتها ، وانكشفت قوتها الادبية ، فاذ ذاك اختمرت فكرة الثورة وكان ما كان .

كانت الحاشية حول السلطان في (فاس) و (مكناس) ، منقسمة على نفسها ، والضغط الاجنبي بلغ منتهاه ، فكان كل مشمئز من ذلك يضع رجاءه في خليفة (الجنوب) لعله يستدرك الامر،فيجبر ما تصدع،وكانت رجالات الحضرة منقسمين ما بين عزيزي وحفيظي ، كان ذلك أولا سرا ، ثم تجاوز ذلك منطقة السر الى العلانية ، وقد يئست الحكومة من المولى عبد الحفيظ بعد ما علمت انه متمكن ، وبعد ما خابت حملاتها نحوه ، لتختله حتى تلقي عليه القبض من غير قتال ، فصفا لنا الجو ، فعزمنا على العمل .

بيتنا امرنا ، وقلبنا كل ما نريده ظهرا لبطن ، وقد علمنا ان الناس ثائرون ضد احتلال (الدار البيضاء) أشد الثورة في نفوسهم ، ويتمنون لو يجدون من يلتفون حوله ليتقدموا الى المقاومة ، ولما كانت اليد الالمانية ودسيستها اذ ذاك عاملة في (المغرب) لاحباط ما كاد يتم لـ (فرنسا) ، اتصلنا بها أتم اتصال ، فوجدنا من قونصو (ألمانيا) كل تنشيط ، فرأينا ان نبدأ العمل ولكن مع كل القواد الكبار في (الجنوب) ، فتفرقنا لناتي بهم ، كاستدعاء

من الخليفة ، ولا يمكن ان يختلف أحدهم عن استدعائه ، فذهب فلان الى عيسى العبدي ، وفلان الى القائد المدني ، وفلان الى القائد عبد الملك المتوكي ، وانا الى القائد الطيب الكنتافي ، فوصلته في (أكركور) فنزلت عليه ، فوجدته محاطا بحرس شديد كثيف ، وعلى كل باب في داره خارجا وداخلا انـاس واقفون بسلاحهم ، فكان كـل واحد منا بمجرد مـا يخرج ، لا يدخل ثانيا الا باستئذان جديد ، ثم حثحثته الى الذهاب فعولنا على السرى ليلة ، فأمرنـي بركوب بغلته والمشي مع اصحابه من رجل كثير امامه حتى يلحق بنا ، فعملت المهماز في شاكلة البغلة وهي من جياد البغال ، فكان اولئك الرجل يجرون حولي وأمامي وخلفي ، ويجرون بقدر مشي البغلة التي تتدفق ، فكانت قوتهم على تلك الحالة مما يستغربه ابناء هذا العصر ، ثم طلع علينا الفجر ازاء سور (أكدال) ، فـاذا بصاحبنا الكنتافي سبقنا مع قليل من أصحابـه ، فقلت له غدرتنـي اجعلتني في أبهتك لتعرضني بما تهرب منه انت ؟ فتبسم .

اجتمع اولئك وتداولوا في مؤتمر حضره امثالهم ، وابن كبور باشـا (القصبة) ، وكل ذى بال من أصحاب السياسة والراي في (مراكش) ، وكان محور المباحثات القيام الى الدفاع عن (الدار البيضاء) ، والنظر في الضعف الشديد الذي وقعت فيه حكومة المولى عبد العزيز امام بوحمارة ، ثم انجلى المؤتمر عن القيام الواجب بكل ما أمكن تحت راية المولى عبد الحفيظ ، ثم بعد أخذ ورد تقوى جانـب بيعته لانه اولى الناس بالقيـام بعد ان ضعف أخوه ، فجرت البيعة وتم الامر باجماع اهل (الجنوب) ، وكان للقائد المدني حماسة في ذلك ، ولذلك لما تنظمت الوزارة كانت له فيها مكانة ، وقد نظمت اولا الوزارة هكـذا :

ابن كبور باشا (القصبة) سابقا : الصدر
القائد المدني الاكلاوي : وزير الحربية
القائـد عبد الملـك المتوكـي : المالية
عيسـى العبـدي : الخارجيـة

الليل كله
ركنا حتى
العصر

وهناك ايضا رتب اخرى لم استحضر اصحابها ، وكان للمدني اتصال كبير بالمولى عبد الحفيظ قبل ثورته ، فلذلك اهدى له بنته فبنى بها المولى ، فكانت له ذلك حظوة منذ هذه الساعة الى ما يليها .

قال ثم اننا منهمكون في امر الرئاسة على القبائل التي لم ترسخ فيها اذ ذاك القيـادة ، وكانت قبيلة (الرحامنة) وند (الحوز) ، وقد كان العيـادي وأناس آخرون معه ظهروا بمظهر الموالاة للمولى عبد الحفيظ ، ولم ينبتوا الا تحت سلاحهم ، كانوا فتاكا ، قال حتى ان العيادي وكان يتردد اذ ذاك علينا ، كنت اوصي اصحابي ان يردوا اليه بالهم لئلا يضع يده على بندقية ، وقد كان ادى لنا خدمة كبيرة،وكان يركب مع امثاله من شذاذ قبيلته،فاستملناه الينا ، وذلـك قبل هـذه الساعة ، والآن تآمـر الوزراء الجدد ، فيمـن يكونون قـواد (الرحامنة) ، وقد شكوا في نجاح هؤلاء لانهم من شذاذ القبيلة ، فقلت لهم ، انا لكم بهم ، فما عليكم الا كتابة الظهائر لهم ، فمكنت من الظهائر ، ودعوتهم الي ، فدفعتها لهم ، وقلت لهم يجب ان تظهروا بما ينبغي منكم ، قال وهنـا يظهر العجب من قوة قبائل (الحوز) ، فان هؤلاء على ما وصفناه ، وقد ذهبـوا الى خيامهم ، ثم لم يتم اسبوع ولم تدر الجمعة حتى دخلوا (مراكش) فـي ابهة هائلة من الخيل ومن الاصحاب ومن السلاح ومن السروج الجديدة ، وقد التف على كل واحد منهم اخوانه ، فجمعوا له كل شيء ، ثم ركبوا حوله ، فدخلوا الى مشور (القصبة) بخيـول مطهمة اكتظت بها رحابه على اتساعها ، والقواد الجدد ظهروا كان لهم في القيادة أعواما ، فتعجب الوزراء من نجـاح سعيي فيهم ، وكان قواد (الرحامنة) نحو اربعة الى خمسة لم استحضر الآن .

قال ، وكانت الاوامر صدرت الى كل القبائل ان تحضر في الجمعة المقبلة بعد يوم البيعة ، فلم يتوسط ذلك النهار حتى كانت (مراكش) وأزقتها وفنادقها طافحة بآلاف مؤلفة مـن الخيل ، فازددنا انتصـارا باهرا بما ظهر من الناس من الفرح الكبير والاعتناء الزائد ، فزال بذلك ما في انفس الذين لا يزالـون يترددون ويرموننا بالتسرع في اعلان البيعة .

ثم حكى حكايتين وقعتا اذ ذاك لهما بعد ذلك ذيول ، احداهما انه كان ذهب بأمر سلطاني الى القائد المدني الاكلاوي وهو نازل في دار بـ (الزاوية العباسية) فحين اراد ان يخرج تناول المدني خنشة فيها نحو الف ريال وجد انسانا من اصحاب الاغراض كما حطها له ، وزرابي فقدمها للحاكي ، قال فابيت قبل الاباء ان آخذها منه فتاثر بذلك واستاء مني كل استياء ، فشكا على السلطان بي فعاتبني هذا ، فقلت له انني والله لا ارضى ان يمن علي ، قال صدر مني ذلك بانفة ، ثم كان ذلك اصل التفاقم بيني وبينه ، وسيرى القارىء أثر هذا التفاقم فيما يلي ، والثانية انه كان مرة واقفا ازاء السلطان بمركز . فجاء القائد المدني فادى التحية ثم قدم ولده محمدا الى السلطان فاداها وأراه اباه ، ثم استدعى من عرض اصحابه انسانا رقيقا يميل الى الطول وعليه سمرة ، يلبس قميصا جبليا وعليه عمامة قصيرة ، وقد خالف بين حمائل كيسه وخنجره بين جنبيه كل الى وجهة على ما هو المعتاد اذ ذاك ، وعليه سلهام كبير جيد ، وفي رجليه نعال صحراوية ، فامره بأداء التحية الى السلطان فسأله عنه، فقال انه اخي التهامي ، بعد ان رجع ووقف في مركزه ، قال له السلطان من حيث لا يسمع احد ، لا ينبغي لك ان تفرط في أخيك حتى يكون بهذه الهياة، مع انكم اليوم مني حيث تعلمون ، فاكسه وجمله، فانتم اليوم في الحضر لا في البدو ، وللبزة عند اهل الحضر اعتبار كبير ، قال فكساه اخوه كسوة حسنة كانت اول مظهر من مظاهره ، ثم ذهبت يوما الى دار القائد المدني فوجدت أخاه هذا امام الباب جالسا بين اصحاب أخيه ، فقلت له ما تصنع ؟ فقال انك ترى انه لا يبالي بنا احد ، ثم حين فتش عمن يكون باشا (الحمراء) اشار به مشير عند السلطان فايدت ذلك ، لانني ارق له حين لا يبالي به اخوه ، فتم له ذلك ، قال وكأني الآن ارى بيتا طويلا في منزل زرناه فيه مهنئين بالباشوية ، ولم يفرش فيه الا ما يعتاد اهل جبال (گلوا) ان يفرشوه على بغالهم من زربيات صغار جمعها عند اهله ، حتى يتوسع كذلك جاءته هذه المرتبة ، قال كان الحاج التهامي بعد ذلك حكى لي انه كان بعد ان خرج من المدرسة ضاق به الحال في (تلوات) مع أخيه المدني ، فاداه ذلك حين تيسر له ان يحج ، قال وكل دعائي

هناك ان بيسر الله لي دارا في (مراكش) أسكن فيها وأنجو من يد اخي،ولم اكن أعلم انه كأن خبئت لي في الغيب هذه القصور كلها ، ويشير الى ما بناه في (مراكش) .

أقول اشتهر عن الحاج التهامي انه كان دائما يذكر بين خلص اصحابه ما كان فيه من الضيق أولا ، وانه ربما كان ساق بهيمة على رجله من (تلوات) ، وكان يتندر بذلك ، مع علي أوصالح ، ذلك هو مبدأ هذا الرجل العظيم اليوم الحاج التهامي الاكلاوي المزواري الذي لا يعلوه اليوم احد في (المغرب) من أفعال كبرى وكرم وشمم صدرت عنه ، ولا يزال يتمتع بذلك حفظه الله .

ثم حكى أنهم كانوا توقفوا اولا على المال ، فكان من عجائب الاقدار أنهم بعد ما فتشوا كل بيوت المال والمخازن فوجدوها فارغة بتبذير المنابهي، ولم يبق فيها الا المتاع الغالي العجيب والاواني والذخائر ، ولم تزل كلها مصونة كل الصون على عادة المولى الحسن ، ومن قبله من اهله في ذلك ، قال وبعد حين وقعنا في قعر خزينة داخل الدار ، في مكان احسب انه وصفه بكونه مظلما ، على صندوق كبير الى الغاية ، فعولج فتحه حتى تيسر فوجد على ما فيه كناش بخط احمد بن موسى حين كان حاجب المولى الحسن، وقد بين كم فيه من الربعات الصغار - اي الصندوقات - ثم ختم عليه فتركه ، وكان ذلك هي العادة في كل الاموال ، وهذا الصندوق مما غفل عنه أحمد بعد وزارته ، فلم ينقله الى داره ، فلم يتصل به المنابهي ولا غيره ، وأحسب انه ذكر ان فيه ثلاثمائة الف ريال ضبلوني ، كل ألف في صندوقة على العادة المتبعة في الاموال المخزنية ، وقد استدار بها جلد مخيط ، وفي طرف الصندوق الكبير حلي كثير مجموع عليه بطاقة كتب فيها ان الحلي امانة المتوكي ، من غير ان يبين اسم القائد المتوكي بنفسه ، فتناوله السلطان وسال عنها القائد عبد الملك فلم يجد عنده خبرها ، قال الحاكي ولعلها من أحد قوادهم الاولين كنا سمعنا ان سلطان وقته ألقى عليه القبض فصادر كل امواله ، حتى ان هذا المكان الذي فيه دار

المتوكي اليوم اعلى (الرميلة) كان مصادرا ثم رد اخيرا اليهم ، ثم احسبه ذكر ان ذلك الحلي رده السلطان الى المتوكي ،قال وفي ذلك الصندوق ايضا حلي كثير ومجوهرات مرصعات هائلة ، فتناول السلطان كل ذلك الحلي بهباته التي لا تنقطع ، قال وبهذا المال ارتشنا حتى تمكنا مما في (آسفي) و (الجديدة) من المراسي ، وكان وجود هذا المال يعد من سعادة السلطان ، فبه تنظم جند جديد والحرس الخاص الملوكي ، وقد فتشنا عن كل ذي رتبة مخزنية ، فنظمنا الحاشية السلطانية على العادة ، فاستجددنا الكتاب والموسقيين واصحاب الوضوء ، وكل ما كان مألوفا ان يكون ، فسرعان ما تم كل ذلك ، وانتظم أمره ، فصاروا ياخذون ريال الضبلون في مؤونتهم ، واحسب انه قال انه كان اذ ذاك غاليا يصرف بريالات من السكة المغربية ، قال واذ ذاك انخرط سيدي محمد بن العربي الدكالي هذا القاضي اليوم ، وابو عبد الله هذا الذي هو رئيس الاحباس المراكشية اليوم ، واحمد الزموري والقاضي العباس ، وكان يحكى عن احد الكتاب ان سبب اتصاله بالحضرة ان المولى كان جالسا عشية في وقت خلافته قبل الثورة،وقد رش أمامه والوقت صيف ،فجاءه فلان ببطاقة فيها الاستعانة به على تعاطي العلم ، فأمره بملازمته ، وقال كثيرا ما أريد شابا لبقا يناولني الكتب ، فلعل هذا يفي بالمراد ، ثم ترقى من ذلك حتى تعين من الكتاب .

اقول وبمثل ذلك ترقى احمد الزموري الذي نال ما نال كما ستراه ، حكى لي سيدي ابرهيم ببيي الفقيه السوسي المراكشي الكتبي المشهور انه كان يختلف الى دكانه احمد الزموري وهو شاب لقن ذو فهم حسن وانشاء ، وهو منخرط بين الفقراء الدرقاويين يصحبهم ، وكان يتشكى الي من الاقلال ، ثم اتفق ان كنت يوما عند ابن كبور باشا (القصبة) ، فطلب مني ان انظر له كاتبا جيدا ، فلاقيت المذكور فوصلته به ، فامتحنه فاعجبه غاية العجب ، لانه لبق منشئ لطيف وديع ، سرعان ما يخالط قلب الانسان ، فأداه ذلك حتى تزوج على يد ابن كبور ، ثم بعد ذلك اتصل بالكتابة الرسمية السلطانية

حتى كان له ما كان مما سنذكره ، وهكذا ينشأ الرجال ، ولعلي سمعت ايضا عين هذه الحكاية من صاحبنا الحاكي ، ولكن لم يذكر منها الا ما كان امتحنه به ، ولم أستحضر كيف كان ذكر ، وكذلك السيد العباس التعارجي فانه شاب لبق يشار اليه بالنجابة فولاه السلطان الجديد على قضاء المحلة يوم خرج من (مراكش) ثم كان من الكتاب .

كذلك تكونت السلطنة الحفيظية ، وهي مصبوغة بصبغة (الجنوب) ، فوزراؤها وكتابها وتفكيرها كلها من (الجنوب)،وقد قامت على أساس الدفاع عن احتلال (الدار البيضاء) ، وقد لمست ما لذلك من تأثير تنشيط (برلين) ، وكان صاحبنا يصرح بكل شيء في ذلك ، ويقول انه هو نفسه من تعين لذلك الاتصال ، لانه سرى ، ولمكانته من السلطان تعين لتلك الناحية ، وقد قلت له مرة لماذا انت لم تتول مرتبة رسمية ، فقال اننا نستتألف كبار الناس بالرتب،وأما أنا فمنزلتي عند السلطان تكفيني مع ان ما أقوم به من نواح أخرى كاف في انني في أعلى الرتب ، يعني كونه محور المداولات بين (برلين) وبين السلطان ، وقد اهتز العالم اذ ذاك بثورة (الجنوب) فاستاء حزب (فرنسا واستبشر الآخرون .

ثم حكى كيف خرج السلطان من (مراكش) صامدا الى جهة (الشاوية) ، وان المتوكي هرب من الضفة الجنوبية لوادي (أم الربيع) حين كانوا يقطعون الى الناحية الاخرى ، وكان يأتي بتفاصيل ذلك كما هي والاسباب ، ثم اقتضى المقام ان يكون هو في (آسفي) ليكون دائما على الاتصال التام ب (برلين) ، قال وكل المكاتيب المتداولة بيني وبين السفير هناك كانت سرية، ثم أوصل الخبر للسلطان دائما ، وقد حاولنا كثيرا ان تعترف بنا الدول فخابرناها كلها ، ولكن (برلين) قالت لنا اخيرا ان الاعتراف لا يتم الا بعد دخول (فاس) ، وقد كانت سياستنا مبنية على ان لا نجاذب (فرنسا) في (الشاوية) و (الدار البيضاء) كاشارة من (برلين) ، ولذلك أبطأ السلطان كثيرا هناك قبل ان يفتح له الطريق الى (فاس) .

وقد نسيت ان اذكر حكاية ذكر انها وقعت لهم بعد خروجهم من (مراكش) ونزولهم وراء (ابن ساسي) ، فان خيلا من (السراغنة) انقطعت على بعض طلائع الجيش السلطاني ، فاهتزت وزارتنا بذلك ، وعرتها رجفة عجيبة يضحك من مثلها ، وقد حضرت لهم في مداولتهم اذ ذاك ، فرأيت من المدني الذي له كبر الامر ، وان لابن كبور الصدارة ، خوفا شديدا فقال للسلطان ان الواجب علينا ان ننحاش الى انذير ، وان نمشي في السفوح ، وان لا نسهل ، فان الناس لم يدخلوا حقيقة في الطاعة ، قال الحاكي ، وكان المدني حقيقة من اجبن الناس ، وبينه وبين اخيه التهامي الرجل الصنديد ما بين السماء والارض ، فمال السلطان للوزراء الحاضرين ، فلم يخالفوا المدني وقد توجسوا ان (السراغنة) وكل ذلك البسيط تتدفق اليهم قنابل خيل ، فقال لي السلطان ما تقول أنت يا فلان ؟ فقلت له ، أن الواجب علينا بلا ريب ان نرجع الى (مراكش) وان نلتجىء الى حرم (سيدي أبي العباس) ، فنرسل غطاءه الى مولاي عبد العزيز لعله ينظر فينا لوجه الله ، فاننا تبنا من كل ما فعلناه ، فأجاب السلطان باشمئزاز اتسخر منا ؟ فقلت ان السخرية والله مجتمعة فيما يقوله هؤلاء ، فان كنت ياسيدي سلطانا حقا وقد قمت بالحق ، فاننا يجب علينا ان نموت على ذلك ، وأما ما قاله هؤلاء من الفرار الى الجبل ، ليقرب أحدهم – وأعني به المدني – الى داره ليلتجىء اليها ، فليس ذلك من أفعال الرجال ، فقام السلطان وانفض الناس ، ثم استدعاني وحدي فملت اليه بالعتاب المر ادلالي عليه ، فقلت له والله ليؤدين بك هؤلاء الى ان تصير ضحكة ، فان هؤلاء عجائز ، وكنت دائما مولعا بالعبث بالمدني الذي ارى السلطان يصيخ اليه كثيرا ، ويعرف مني السلطان ذلك فيغضى لمكاني منه ، وازيد انا قدما ، وانا ازداد كراهة له ، منذ يوم الزربية والمال ، فقال السلطان وكيف نعمل الآن حتى ننجو من هذا المازق ؟ فقلت له اشير عليك بشرط ان نكتم على هؤلاء حتى يتم الامر لئلا يفسدوه علينا ، فقال كيف ؟ فقلت تكتب الآن الى قواد (الرحامنة) ، وهم اليوم مرابطون في (الجبل الاخضر) ، تأمرهم فيه بالسرى ليلا بكل خيلهم حتى يصلوا (السراغنة) ثم يوقعون فيها الحرائق والنهب

ويذهبون قدما ، والمنلقى معهم في (قلعة السراغنة) ، قال فنفذ الكتاب فجلست اطلب الله بكل جوارحي ان يتم الامر كما اريد ، ليظهر عجز الوزراء وتدهورهم في جهل عظيم بالحالة ، وأنهم جبناء .. وفي السحر استفقت اطل لعلني ارى العلامات التي ننتظرها،وعند الفجر تراءت لي نار من بعيد، ثم اخرى،ثم اخرى، ثم سمعت البارود ، فلما تحققت دخلت الى فسطاط السلطان ، فوجدته مستندا الى سرج ، وقد نام بلا فراش لغلبة الهم عليه ، وقد سهر مع الطلبة في اللطيف ، ولم يكن يعتمد كثيرا على نجاح ما ابرمناه ، فناديته بلطف حتى استفاق ، فحييته تحية الصباح ، ثم اعلنت اليه ان الامر قد تم ، فخرج ينظر بعينيه ، ومعسكرنا قد بدأ يشعر بشيء جديد في الافق ، فصلى السلطان والناس ثم جلس على كرسي يستدعي الوزراء فيجيئون وهم يرتعدون فرقا وجزعا ، وقد توهموا ان ما يرونه كان من الذين يعارضوننا ، فامر السلطان بالرحيل ، وبتنظيم الكتائب فتقدمت في (السراغنة) تدهمها ، وهي تفتك بكل من يتعرض لها ، ثم عمت الحرائق (السراغنة) ويتقدم أهلها مستشفعين بكل احد ، مستسلمين ، واخيرا طلعت خيل (الرحامنة) منتصرة عليها راية العز مرفرفة ، فحين عرف المدني ما كان زاده ذلك حزازة .

أقول انني لا اعلم كيف القائد المدني لادرك مقدار ما يقوله حاكينا ، وانما اعرف انه مع معاداته ايضا لاخيه التهامي فانه يصفه دائما وصفا جميلا، ولا يبخسه قلامة من حقه ، ولذلك يظهر انه محق في كل ما يقول ، قال ، انحاشت الحكومة العزيزية الى (الرباط) وهي تحاول ما تحاوله من (الجنوب) ، وقد راعها مقدار العظمة التي فاز بها السلطان الجديد بسرعة ، ففتح الباب بانجلائها عن (فاس) للذين يريدون ان يظهروا بالمظهر الحفيظي ، فكذلك تبدل الموقف من (فاس) ، فكان للشيخ محمد بن عبد الكبير الفاسي واخيه عبد الحي والحفيظ من الاسرة الفاسية يد طولى في رفع راية المولى عبد الحفيظ ، وقد استاءوا من الضعف الذي وقعت فيه الحكومة العزيزية ، حتى احتلت (الدار البيضاء) ، ففي هذا الاوان عزم المولى عبد الحفيظ ان يتقدم الى (الغرب) مع

حفز (برلين) لذلك ، ليتم اعتراف الدول .

حكى صاحبنا انه لحق بالسلطان في الطريق وهو متوجه الى جهـــه (مكناس) ، واحسب ذكر انه لحقه في (زيان) ، وقد ذكر محمد بن حمو رجـلا باسلا قام بكل ما للسلطان من حق ، وقد تعرض بخيله ورجله وبالمؤن الهائلة، وأحسب انه قال ، هناك لاقاه وفد (فاس) معهم الشيخ عبد الحي نائبا عـن اخيه ، وقد كتب اخوه للسلطان شروطـــا منها تولى بعض خطط ، كحسبـــة (مكناس) وخلافة (فاس) للشيخ محمد بن عبد الكبير ، قال انني رأيت ذلك بعيني ، وكان ممن يقولون في الشيخ انه دنيوي لا غير بسبب ما يحكيه كهذا وما سيأتي ، ثم احتل السلطان (فاس) ، وتم كل شيء ، واندحر كل الشيعة العزيزية ، قال وفي الايام الاولى التي دخلنا فيها رميت يوما عيني على كرسي في قبة مما هو مهيأ لقعود السلطان فرايت فوقه ورقة مطوية فتناولتها ففتحتها فاذا هي فتوى علماء (فاس) ضد المولى عبد الحفيظ ، واحسبه ذكر فيها التكفير زيادة على وصف المحاربة ، ثم اراني انا هذه الصحيفة فوجدتها هي بعينها ، وفيها توقيعات علماء كثيرين قدموها للمولى عبد العزيز ، فنسيها هناك ، وقد كنت اخذتها لآخذ منها صورا فاذا بي أنفى ، وعهدي بها عند احد اصحابي ، ولا ادري ما فعل بها الدهر بعدنا .

قال : ان قونصو (ألمانيا) في (فاس) كان تام الاتصال بنا غاية ، وهـو يقوم بكل الادوار ، ويقوم لنا بكل اعانات نريدها معنوية ، وكان مركزه هـو الاول في الدولة الحفيظية ، وبعده الآخرون .

بــــوحمـــــارة

ثم حكى بقية قضية بوحمارة ، وما جرى من حروبه معهم بالتفصيل ، وقد استبسل القائد المدني الاكلاوي وآخرون في محارباته الهائلة ، الى ان ألقي عليه القبض في ضريح شيخ ذكره ، ثم سيق الى الحضرة ، فتم الفرح وعلا كـل شـيء .

قال وكان يوضع اولا في قفص عند المشور يراه كل احد ، ثم امر به الى دويرة ، وكنت اتصل به كثيرا ، فقال لي يوما ان هذا القميص من الصـوف يضر بي ، ولا احتمل لبسه لان الرصاص كان قد خرق جلدي ، فأبلغت ذلـك للسلطان فأمر له بكسـوة حسنة تامة استلطفها ، ثـم اتصلت مؤانستي به ، فقلت له يوما ، من أين كنت عرفت انك لائق بمقام السلطنة ؟ فقال او ليس لك مطالعة الجفريات ؟ قلت لا ، قال ان في جفرية العميرى انني سأخرج في عام 21 فذكـر ذلك البيت ، وقد ذكر فيه ان الفتان سيخرج من (تازا) عام واحـد وعشرين ، فقلت له أنت اذن فتان لا سلطان ، فأعرض عن جوابي غضبان ، قال وفي ذلك اليوم كان أول مرة طرق فيه ذكر جفرية المعيري اذني .

وجاء يوما عبد من المكلفين بحراسه يحييه بتحية الملك استهزاء به ، فقال له اذهب عني فهيهات ان تكون مثل عبد فلان ، فصار يذكر عن عبد لـه غرائب ، وكان هذا العبد لمولاي عرفة ، ثم صار الى بوحمارة فكان مغوارا من المغاوير الذين يخوض بهم المعارك الدامية ، قال وكان بوحمارة محظوظا فـي اختيار الافذاذ من الشجعان ، اجتمع حوله منهم كثيرون بهم استطاع المقاومة

الطويلة ، وكان يعنى بهم غاية ، ثم ذكر عن ذلك العبد انه كان عنوان سعده ، فمنذ مات تقهقر امره ، ثم ذكر عنه كيف استتب له الامر اولا ، فذكر انه كان صلى الصلاة الفلانية هي الجمع في (القرويين) مع المولى عبد العزيز ، ثم خرج الى (تازا) ، فوجد هناك نزهة الطلبة فدخل بينهم ، ثم فقد منطقة يتمنطق بها ، فطلبها فلم يجدها ، وقد اسر الى بعض من هناك انه مولاي محمد بن الحسن الذي كان والده غضب عليه وامر بسجنه ، وانه افلـت من السجن ، ثم قام يدعو على من ذهب بمنطقته ، فاتفق ان وقعت النار في متاع من كان سرقها منه ، فعلم ذلك الطلبة فصدقوه في دعواه ، فقام فيهم ، وامرهم ان يخرجوا امير (تازا) من دار المخزن ، فاخرجوه منها ، وكان فلانا الرعديـــد الخائر الهمـة ، وقد سماه ، وذكر انه كـان تولى بعض المراتب الكبرى فـي (مراكش) احسب انه تولاها في غيبـة المنابهي الى (أوربا) ، ثم بعـد ذلك رمي به في (تازا) ، وعلى ضعفه تأسس البناء الاول في هيكل ثورة بوحمارة، قال:ثم كان لبوحمارة اتصال كبير بـ (فرنسا) تؤيده بالسلاح وبالقوة الادبية، وحكى في ذلك حكاية ذهب عني نسجها ، ولبها مجموع في انهم حاولوا ان يضربوا نطاق الحصار على بوحمارة فدافعت عنه هذه الدولة بصولتها ، ثم لما القي عليه القبض واستأنس بالحاكي كما تقدم صار يقول له لو اطلقني السلطان وقومني لطوعت له كل (الريف) و (الجبالة) بسرعة ، قال كان الرجل مقداما جسورا ذا قلب صلب يستطيع ان ينفـذ كل ما يقول ، فاقول ذلك للسلطان ، فيقول كن عـلى بال لئلا يغرك ، واخيرا بلغنا عن قونصو الالمانـي ان القونصات الدولية سيطلبون غدا الى السلطان ليتشفعوا في بوحمارة ، على ان يسكـن (طنجة) وتكـون له مؤونـة من صندوق (المغرب) ، فأمر السلطـان بقتله في تلك الليلة قبل ان يسأل عنه الآخرون ، لانه لا يمكن له الا اسعافهم، وكان السلطان اذ ذاك في (دار الدبيبغ) كما أظن انه ذكره ، قال فذهبت لذلك ليلا مع عبد امرته ان يجيء وراءنا فيضربه بمسدس ، فدخلت الى بوحمارة باشا فقلت له آن تمام ما تقوله دائما ، فاخرج معي فخرجنا الى بستان هناك في دار المخزن بـ (فاس) ، فسار العبد وراءنـا وانا أفتل له في الذروة والغارب وهـو

مستبشر اذا بالعبد اعتراه خوف بعدما سدد الى بوحمارة المسدس ، فالتفت
هذا مرعوبا فصاح هذا غدر ، اشهد ان لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول
الله ، فبادرت بأخذ المسدس من العبد فضربته فانبطح فزدته ثانية في صدغه،
فبقي ينتفض بيد ورجل وعين حتى فاظت نفسه ، فتركناه مجندلا ، والامر كله
سر لم يطلع عليه أحد قط اذ ذاك فأبلغت للسلطان الخبر ، فرأيته كأنه يتشكك
هل هو قتلته حقيقة لانه ذو اذن يصيخ بها أكل احد ، وكثيرا ما سمع عني
من اعدائي انني غير ناصح ، فكأنه حك في نفسه انني اطلقته لادير معه دورا
آخر ، فبادرت بغضب الى جثته فأمرت برأسه فقطع ، فحملته في مخلاة فألقيته
أمامه ، فقلت اتصدقني الآن ؟ فارتاع من رؤية الرأس ، فقال ما هذا ؟ فقلت
له ليصح عندك انني اصدق دائما فيما أقول ، فأمرني بالرجوع بالرأس الى
الجثة ، فجئت فأمرت بالبنزين فصب على الرأس والجثة ، وكان في يـــدي
ثقاب لادخن به فألقيته عليه فاشتعل نارا فاحترقت الجثة كلها في لحظة ،
فصرت أقلب في الرماد فبان لي قلبه لا يزال سالما ، فتناوله متناول فضرب به
فنبــا كأنه نواة ، ثم امرت بـه ثانيا فصببنا عليــه من ذلك فاحترق ، كذلك
هلك بوحمارة الذي رجع القونصات في الغد خائبين بسببه ، بعد ما جمعهـــم
للتكلم فيه واحد منهم ، فاغتاظ من اغتاظ ، وقالوا ان السلطان ألقاه للسبــاع
فافترسته ، وما تقدم هي الحقيقة الناصعة .

البطش بالكتاني

وحكى ايضا كيف وقع البطش بالشيخ الكتاني ، وقد تقدم ما صعحه من أنه رأى انه كان شرط على السلطان بادىء بدء ان ينيله خلافة (فاس) ، وان يولي حسبة (مكناس) لصنوه الشيخ عبد الحي ، كما احسب انه فصل به هاتين الرتبتين لهما ، قال ثم ان الشيخ لاقى السلطان في (مكناس) - كما احسب انه ذكره - ثم لم يزل يحترمه غاية الاحترام،ويرى له مكانة كبيرة بين العلماء، ويصله كثيرا بكل انواع الصلات ، غير ان الشيخ لم يكن يحترم السلطان ، فكثيرا ما يقرعه خصوصا في مجالس العلماء ، وهو يصبر له صبرا كبيرا من مثله ، وذلك ان السلطان معني غاية الاعتناء بالعلم وأهله فيجمع كل العلماء الكبار كابن الخياط والوزاني وامثالهما ، وكان يصلهم بكثرة حتى انه عرف ان ابن الخياط يتضرر بعدم كون داره غير خالصة لملكه ، فامرني ان ابلغه ان يشتريها كلها، ثم كان يوصل اليه على يدي ثمنها اقساطه فينة بين فينة من اللويز والريالات كثير ، حتى تم الثمن ، وكان يتناول ذلك من غير ان يعرف أحد ، ولذلك فرق السلطان ذلك ، لان لابن الخياط عنده مكانة دينا وعلما وفهما ، ولا يـرى له بين علماء (فاس) قرينـا ، ولما جاء الشيخ بوشعيب جعله كبيـر المجلس فيقـرر ويخرج على يديه صـلات العلماء ، ويقيم لهم أحيانا حفـلات طعامية ، وكان من عادة السلطان انه اذا جلس بين العلماء يجب ان لا يلتفت اليه كسلطان ، غير انه مع ذلك يجب احترامه لمركزه ، وقد نفذ للدكالي دارا كبيرة ومؤونة وكل ما يحتاج اليه ، والكل عارفون كيف يتمشون مع السلطان الا الكتاني فانه يفرط في الدلال عليه ، وقد كان أوى اليه اذ ذاك اناس هربوا

من (الترك) ، التجأوا الى (المغرب) قبل الانقلاب العثماني ، فكانت له معهم يد خفية ، الله أعلم ماذا ينسج فيها ، وحكى انه كان مرة في الباب المفتوح في السور المقابل لمصلى العيد ، وهو هناك في الخلاء ، خرج اليه السلطان مرة وانا معه ليتريض ويستريح من الرسميات ، ولكون تلك الناحيه خالية ، جلسنا فيها منفردين ، او معه قليل من العبيد يلاحظون من بعيد ، فرأينا الشيخ الكتاني أقبل في الطريق من ناحية مصلى العيد ، ثم رآى السلطان فمال اليه وقصده ، مع ان ألواجب يقضي عليه ان لا يذهب اليه ، وان يتعامى عن معرفته، غير انه تجاهل كل ذلك فسار ببغلته حتى وصلنا فنزل ، فقام السلطان فلاقاه والشيخ وحده مما يدلنا على انه في أمر مهم ، مع انه لا يكون عادة وحده ، ثم رجع فصدر من السلطـان كلام دال على اشمئـزازه منه ، وسماه الثقيل ، والحقيقة انه كان اذ ذاك يخـرج ليبرم الامر مـع اصحابه البربر ، ولذلك لا يصاحب احدا ، وفي يوم قيل لنا ان الشيخ الكتاني قد هرب مع كل أهلـه ونسائه وأبيه واخونه ، فتجارت الخيل بقيادة فلان ، فادركوه قد دخل ارض البربر ، فتداخل القائد مع فلان من البربر – وسماه – فاحتال على الكتاني حتى خرج من ارض قبيلته ، فانقض عليه اصحاب السلطان فكبلوه ، وسيق هو ومن معه ، فكان امرا عجبا ، جاء منه لطف كبير فانه لو أفلت الى البربر وله ماله عندهم من سمعة كبيرة واصحاب وفقراء ، وهو ما هو في علمه ودينه وشرفه ، لكانت فتنة أكبر من فتنة بوحمارة ، ولكن الله سلم ، قال وكنت حين الدخول بالشيخ غير حاضر ، ثم رجعت مما كنت فيه فقيل لي ان الشيخ صار الجلادون يجلدونه حتى كاد يموت ، فرق قلبي على مثله ان يجلد ، فدخلت على السلطان بمـا هو المعهود مني من الدلال عليـه ، فعاتبتـه على ما صنعه بالشريـف ، وما مثله من يعذب هكذا مع رقه بشرته ومع علمه وسمعته ، فانت هو السلطان فان ظهر لك ان يموت فليقتل بسرعة ولا يعذب ، فانتفض امامي مشمئزا مـن عتابي فقال انك دائما لا تعرف الا العتاب قبل ان تطلع على الاسباب ، ثـم فتح حقيبة صغيرة مما يعهد ان تجعل فيه النساء حليهن ، فاستخرج منهـا

خريطة مخططة احسن تخطيط ، وقد بين فيها كيف تحاصر (فاس) فبين فيها المواقع التـــي يجب الحرص على احتلالها بادىء بدء ، وما يكـــون فيها من قبائل البربر مع المقدمين من فقـراء الشيخ ، كل ذلـك مبين في الخريطة ، فبهرني ما رأيـــت من ذلك التنظيم ، وهو لعمري تنظيـــم لا يستطيع معه المحاصرون بـ (فاس) أي دفاع ، وما ذلك الا من ابرع الحربيين ، فقال أرأيت الآن ما هي نوايا شريفك ؟ فانني امرت به وبأهله الى دويرة كذا ، ثم عرض علي متاعهم فوجدت فيه ما ترى ، فأمرت فلانا ـ وسماه ـ ان يجلد الكتانــي حتى لا يبقى بينه وبين الموت الا شبر واحد ، قال وقد فرق السلطان خدمهم على الناس حين امر بهم الى تلك الدار ، وسرعان ما هلك الشيخ من أجـــل الضرب المبرح الذي لم يتحمله ، فجاء السجان فأبلغ الخبر ، فقال له السلطان ان شاع الخبر اطرت رأسك ، فاغسله انت وفلان لانسان عينه ، وليذهـب معكم فلان أحسبه ذكر قائد (فاس) الجديد حتى يدفن من غير ان يحضر أحد ، فكانه أحد المساجين ، قال فطلعت مع السلطان الى منزه عال ، فمددنا بصرنا فرأينا الشيخ يقبر في المقبرة التي كانت ازاء المصلى للعيد،قال ولو كنتاليوم هناك لعرفت عين الجهة ، وان لم أكن أعرف القبر ، لانه لم تكن له اية سمة ، ثم أن السلطان اوعز الى الشيخ الخضر الشنكيطي ان يذهب الى العلماء ليأتوا متشفعين في الشيخ وآله ، وان يؤكد لهم انهم حاظون بذلك ، وأن يستنهضهم من حيث لا يعلمون ان ذلك بايعاز منه ، ففي اليوم الثاني قيل للسلطان ان العلماء بالباب،فأمر بهم فدخلوا،وكانت العادة ان العلماء دائما في كل الدولة العلوية لا يبتدئون احتراما لمراكزهم ، واكبارا لمقاماتهم ، فتلقاهم السلطان بالسرور والاستبشار ، وقال لهم ان هذه الساعة أفضل ساعة ، ثم سألهم عن موجب الزيارة الخاص ، فذكروا له طلبتهم ، فقال ان كل ما تطلبونه لا ترجعون الا به. غير ان الشيخ قد صار الى رحمة الله ، وأما أهله فسأسرحهم فخرجوا مبتهجين، ثـم أرسل الى المولى عبد الكبير والـد الشيخ فعاتبه فقال له أبعد شيبتـك يتلاعب بك الولدان معأنك من شيوخ الاسلام ؟ وكان يجب عليك ان تلتزم الحياد،

لا أن تذهب معهم ، واعظم وانكى حيث سقتم معكم الشريفات الفاسيات الى الديار البربرية ، ثم قال له أن العلماء تشفعوا فيك ، فالآن اذهب الى دارك ، ودع عنك كل ورد ، واشتغل بخويصة نفسك ، ثم استدعى بالشيخ عبد الحي، فندد به وبأفعاله ، ثم امره ان لا يتخلف عن باب دار المخزن ، وان يكون بين الكتاب ، ثم قال له والله ان سمعت انك تحوم بعد اليوم حول ورد لترين مني ما يسوءك ، فزعم انه أجابه بأنني اترك حتى الصلاة ، فقال له أهذا ما أريد منك تركه ؟ أولا تدعن مخرقتك ؟ زعم ان ذلك ما دار بينه وبينه ، فاسدل الستار على الشيخ الكتاني المقبور رغم ما يزعمه مغفلون من انه لا يزال حيا .

أقول ان قضية الكتاني من القضايا التي اسرعت في زلزلة الثقة بالمولى عبد الحفيظ ، لان المشهور عند الناس ان السلطان خرج عما شرط عليه من الاصلاحات ، فكان ذلك مما ادى الى ان فارقه الكتاني ، ثم لما فتك به أثر ذلك في الناس تأثيرا سيئا ، هذا هو المشهور عند الناس ، وللباحثين تحقيق ذلك .

هزيمة الجيش العزيزي بالرحامنة

ثم ذكر ان المولى عبد العزيز الذي كان في (الرباط) كان مد يده الى المتوكي ، فخرج جند كثير في (السويرة) يعيد المتوكي الذي علمنا انه تبرأ من المولى عبد الحفيظ،وفر من معسكره فوق (أم الربيع)،فكانت حركة المتوكي هي التي حملت المولى عبد الحفيظ حتى ارسل اناسا من أصحابه للمقاومة في (الحوز) ، منهم صاحبنا الحاكي والقائد المدني الذي صار اذ ذاك هو الصدر الاكبر ، وفي يده رؤوس الامور ، فذهب ليتفقد (الجنوب) ، قال الحاكي وكانت الحرب قائمة بين الاكلاويين (والرحامنة) وبين المتوكي ، وقد كان العيادي تقدم بالحملة حتى وصل حد ارض قبيلة (بني أبي السباع) ، وقد دافع المتوكيون عن بلدهم فقط ، وفي اثناء هذه الانتصارات الكبرى على المتوكي

زحف المولى عبد العزيز في جيش كبير من (الرباط) ليحتل (مراكش) ، فأسرع العبادي واهله ليدافعوا عن بلادهم الجيش العزيزي الزاحف نحوها ، فلم يبق أمام المتوكيين من يعتبر ، قال فمر بنا العيادي فقال ان عند المتوكي قوة ، ورجاله شجعان ، فلا بد لكم من رجل مغوار يقوم في نحورهم ، قال اما انا فكنت أقول يذهب فلان ، واحسبه قال محبوب ، وهو رجل اذ ذاك معروف في الجندية كالقائد الناجم ، ولكن الحاج التهامي قال لا يذهب الا بابا حمادي كما أحسبه انه سماه ذلك القائد الاكلاوي الذي ذهب آذ ذاك ، فذهب الاكلاوي غير انه لم يجد فتيلا ، فقد حمل المتوكيون حملة هائلة زهلكته ، ثم كانت هزيمة عنيفة امتدت معها الحملة المتوكية مع ما معه من الجند العزيزي ، قال ففاجأنا الخبر في (مراكش) مفاجأة غريبة ، ونحن اضعف ما نكون ، لان خيلنا قليلة ورجلنا ضعيف ، ثم تبعتها مفاجاة اخرى بان المتوكي وصل (وادي نفيس) فذعرنا ذعرا هائلا ، ولو كان المتوكي مشى قدما بمثل هذه السرعة لاحتل (مراكش) ، غير انه توقف حول الوادي وقد انحصر بعض اصحابنا في دار هناك ، فحمل اصحابنا حملة كبرى صابرة حتى وصلوهم ، قال ثم خرجنا مع الحاج التهامي الرجل الكبير القدر في البسالة كما ذكره الحاكي ، فظهر منه مظهر هائل ذلك النهار ، فتواقفنا مع المتوكيين مواقفة كبيرة دامية في يوم حار ، قال وبينما نحن ندافع المتوكي اذا بالجيش العزيزي ينهزم امام (الرحامنة) وقد استولوا على كل الاثقال والمتاع والفساطيط وأحمال الاموال التي مع المولى عبد العزيز ، وقد ذهب كل ما معه شذر مذر ، قال وسمعنا ان للمولى عبد العزيز ذلك النهار يوما مشهودا دون عياله ، نافح دونهم كل نفاح حتى نجا ، ولم ينج غيره وغير من معه بلباسهم، قال حدثني محدث انه كان يسمع أن الهزيمة اذ ذاك في جيش فيجب ان لا يفارق الانسان كبيرها ، ففعلت ذلك فنجوت في ركاب المولى عبد العزيز ، وقال ايضا حكى لي عباس ابن الوزير أحمد انه كان ذلك النهار منهزما،قال فكانت المصيبة العظمى التي قاسيناها من الذين يتعرضون لنا من النهاب ، قال فلاقاني أولهم

فسلبني من كل شيء،ثم اراد ان يتركلي قميصا فقلت له لا والله ولو السراويل، فناولته كل شيء لاجد لي راحة ، فبقيت كما ولدتني امي ، فأمنت من كل ناهب يمد الي يده ثانيا ، بخلاف آخرين فانهم لاقوا عنتا بعد عنت ، وذلك كل ما جرى لكل المنهزمين غير واحد سماه وتعجب من حاله ، فقال انه نجا بكسوته وبغلته ، فكل ما لاقاه نهاب يتخطونه من غير ان يمسوه ، أقول لعل السفر البخاري المقدس المشهور في الدولة العلوية ضاع ذلك النهار ، ولم نسمع بذكره بعد ذلك النهار ، فقد سألت عنه مرارا فلا أجد له خبرا .

قال كذلك انهزم الجيش العزيزي في حال كنا نخاف فيها ان يحتل (مراكش) ، فتقهقر أيضا المتوكي ومن معه ، ثم بايعت (السويرة) ، وقد تولى كبر امرها كما أحسب انني سمعته منه ، القاضي مولاي احمد البلغيثي .

قال وبهذه الهزيمة انقضى امر المولى عبد العزيز،وتخلى وأوى الى(طنجة) وعين له السلطان من الخزينة المغربية 150 ريالا نهاريا .

حوادث فاس الاخيرة ونظره في الوزير

ثم حكى منو انه راجع ثانيا (فاسا) بعد هذا ،وان السلطان استبطأ الوزير المدني ، فأرسلني لاحفزه للمجيء بما أمكن ، فوصلت (مراكش) ليلا ، فبكرت عند الاسفار الى دار الوزير فأسمع من ذلك الوقت نغمات الاوتار وقد قعد يفطر بعد صلاة الصبح وهو مع ذلك يتنغم بالنغمات ، وكان مولعا بالموسيقى مع بداوته ، فاستأذنت عليه فدخلت فوجدته يتناول من طجين امامه ، فهجس في نفسي ان يكون فيه شيء فتأبيت على المناولة منه ، وذلك لانه ابطأ عن الخروج الي ، ثم لما خرج الي خلف انه لا يعرف انني الطارق ، ثم احسبه قال انه صار يواكلني لنفي التهمة عني ، ثم اعطيته رسالة السلطان ، فقال على السمع والطاعة ، ولكن لابد لنا من اسابيع نتهيأ فيها ، ثم خرجت من عنده فطرقت

عيسى العبدي ، فقال انني متهيىء منذ الآن ، فمتى اراد الوزير الذهاب فانا على الاهبة ، ثم طرقت الحاج التهامي ، فقال هيهات ان يخرج لك هؤلاء وقد استمرأوا البهجة ومغارم (الحوز) ، وانما يريد هو ان يذهبوا ليفرغ له الجو ليندل ما يألفه ، ثم طرقت العيادي وهو انشطهم وانصحهم للسلطان ، فقال ان امرتني لاملأنها عليهم خيلا ولأسوقنهم الى السلطان ، ثم بقيت في (مراكش) ، وهم يعدون ثم ينقضون الى ان شددت على الوزير ، فقلت له انني على كل حال ذاهب فان شئت ان نتخلف فلك ما تريد ، فحفزه ذلك للذهاب لانه يخاف أن أقول عنه انه لا يحب المجيء فيفسد امره عند السلطان ، فخرجنا مع المتوكي وقد ضمن له الوزير رضا السلطان ، فخرجنا في موكب كبير مزدحم بأصحاب الوزير والمتوكي وعيسى العبدي ، فماشيتهم حتى قطعنا الوادي ، ثم غادرتهم من غير وداع فسبقتهم الى السلطان ، فمر الوزير بـ (زطاط) ، فلاقى من تلك الناحية ببعض رجالات المحتلين لـ (الدار البيضاء) ، ثم تلقاهم السلطان بما كان نظمه من جند كثير بعد ذهاب الوزير الى (مراكش) ، فكان اللقى هائلا ، فزعم ان ذلك ساء كثيرا الوزير ، لان الحاكي كثيرا ما يصم الوزير بعدم الاخلاص لسلطانه ، وانه هو مصدر كل الدعاية السيئة التي سادت اذ ذاك كثيرا من المحافل المغربية ضد المولى عبد الحفيظ ، وانه في بطانته سوداء الصحيفة ، وكان يرمي الوزير وراء ذلك بانه كان يعمل باشارة المحتلين ، وانه مجتهد في اثارة القلاقل امام السلطان ، وانه ساع في اضعاف كل قوة رآها من جانب السلطان ، ولذلك زعم انه استاء كثيرا بما رآه يوم اللقى ، فلم ينشب بعد استقراره ان اقترح تسريح هذا الجيش القديم ، وتنظيم جند آخر على الطراز الاخير ، قال الحاكي فحاولت بكل مستطاعي ان احول دون منيتة ، فاقول يجب ان يبقى القديم كما كان ويشتغل بما يراد من الآخر ، وان يشجع كل من في القديم حتى ينتظم في الجديد من نفسه ، واما حل ذلك القديم في ساعة واحدة ثم محاولة تنظيم آخر يحتاج في تنظيمه الى وقت غير قصير حتى يدرك منه المراد ، فذلك انما هو سعي في ابقاء المملكة

بلا جيش ، فكانوا كلهم صفا واحدا ضدي فسفهوا رايي وتبعهم السلطان الذي يأبى ان يستقل يوما ما بالتفكير فيما هو الاصلح منذ أن حل (فاسا) ، فكأنه ليس بذلك الثاقب الذهن الذي تعرفه في (مراكش) ، فنفذ امرهم ، فأعلنوا للجيش ان كل من لم يرد ان ينتظم تنظيما جديدا فليذهب الى حال سبيله ، فذهبت دعايات الدسائس بينهم كل مذهب ، فسرى بينهم كالكهرباء أن السلطان يقاد النصارى ويريد عسكرا لا يصلي ولا يبالي بشعائر الاسلام ، وقد كانت الدعاية التي تروج حول السلطان تدور حول ذلك بنفسه في شخصيته ، ولعن الله الافاكين ، فانجلت تلك المحاولة عن حل الجيش القديم ، قبل ان يتكون شيء آخر يقوم مقامه ، فبقيت المملكة بلا جند في حين ان السياسة التي يتبعها احمد الزموري الكاتب الاول في الوزارة المتولى لتنفيذ سياسة الوزير في كل القبائل التي دخلت اياالتهم غير مستقيمة ، بل فيها من الجور وهتك الحرم شيء كثير ، أقول سمعت من ثقة ان جملة ما كان يصنعه ذلك الكاتب انه ينزل اصحاب السلوقية من أعوان الوزير الذين يستعين بهم في الصيد ، على فضلاء الناس هناك ، وعلى ارباب الزوايا ، فذلك هو ما عجل بالثورة البربرية التي جاءت فوجدت الجو فارغا بلا جيش كاف ، وفي هذا الدور ذكر أن جيشا سلطانيا كان مرابطا جهة (الحاجب) ، فيقال في (فاس) انه مشتت بأيدي البربر ، فندبني اليه السلطان فوجدته سالما ، فتقدم امامي حتى احتل قلعة (الحاجب) ، فرجعت فأشعت ذلك الخبر ، فلم اجد من يصدقني للضعف الشديد الذي يفشيه المغرضون في كل فرصة حتى تواترت الاخبار ، ولم يمكن لتقائل ما يقول .

ثم ذكر ثورة المولى زين العابدين في (مكناس) ، وانه اتصل بالبربر ، قال فاشتد علينا الحال اذ ذاك ، فكنا نتناوب على الحراسة فوق (وادي الجواهر) ، فبينما انا يوما في كبكبة من الخيل والحاصدون يحصدون اذا بي ارى حاصدا يتقدم اصحابه ، فلفتني ما يصنعه مرارا حتى كاد يبتعد منهم ، وخيول البربر في مقابلتنا ، فحملت بأصحابي حملة فأخذناه فالقى بسرعة

منجله الى بعيد ، فتنبهت الى ان في تلك العناية بابعاد المنجل عنا ما يدعو الى ريبة ما ، فأخذت المنجل فنظرت مقبضه فاذا بي استخرج منه رسالة ، ففتحتها فاذا هي بخط حسن وعبارة جيدة ، وفيها التحية على المولى زين العابدين وشيعته ، وينبههم الى الضعف الذي استولى على الحكومة بـ (فاس)، ويدلهم على مواقع الضعف ليزحفوا منها ، فكانت آراء صائبة الى الغاية ، فأمرت بالذهاب بالحصاد الى السجن ، فمكنت السلطان الرسالة فتأمل فيها مليا فقال ان تصدق فراستي فما هذه الرسالة الا من فلان وسمى كاتبا اظنه سماه ابن الحمراوية ، ولهذا الكاتب ترجمة في كتاب غريط المطبوع ، وكان السلطان امر بسجنه لشيء ، فقال علي به ، فاتى بالرجل فدخل في هيأة حسنة ووقار ووجه طلق وطلعة بهية ولسان منفتق ذلق ، فحيا السلطان تحية حسنة بلسان متثبت ، ثم قال ان هذا اليوم ليوم سعيد عندي ، فيا طالما اتمنى على الله ان اجد مثل هذه الفرصة لانهي الى سلطاني مقدار مالي نحوه من وداد صافي ومن اخلاص ثابت وشجت عروقه في قلبي ، فتركه السلطان يخطب خطبته حتى قال كل ما اراد ، قال الحاكي ، وكنت انا واقفا فلم اشك في انه ليس بصاحب الرسالة قطعا ، لان مثل هذه الطلعة في مثل تلك اللهجة وفي هذا الثبات لا يصدر منها مثل هذه الخيانة العظمى ، غير ان السلطان نفذ الى ما لم انفذ اليه ، فقال له اقرأ هذه الرسالة فتأملها ووجهه لم يتأثر ، ولونه لم يظهر منه شيء فصار يقرأ وهو يكثر التعجب مما يرى ومن هذه الخيانة ، فلما اتمها قال له السلطان اتعرف كاتبها ؟ قال له لا يا سيدي ، فقال له أولا يمكن ان تكون انت صاحبها ؟ فقال حاشا يا سيدي وانا ما أنا في اخلاص لهذه الدار ، ولي من سابق خدمتي ما يبرهن على انني لا أخون هكذا ،فقال له السلطان اذهب هناك وقف بعيدا وتثبت وسآمر كل الكتاب ان يقفوا عن يمينك وعن يسارك ثم ننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين ، واياك ان تظهر ما قد يلفت اليك نظرا ، فاللوم كل اللوم عليك ان فعلت شيئا من ذلك ، ثم امر به ان يقف بعيدا بين الكتاب في صف طويل ، فاستدعى الحصاد ، فسئل فقال ان الرسالة

اعطاها لي انسان من السجن ، فقيل له أتعرفه ان رايته قال نعم فأخذ بيده آخذ نحو صف الكتاب فذهب توا حتى وضع يده على الرجل نفسه ، فاستدعاه السلطان فقال له وماذا تقول الآن ؟ فتلجلج فأمر به فاعدم على ايدي الجند بالرصاص ، ثم ذكر ان لهذا الكاتب غرائب فانه كان في حين مسجونا لجريمة في سجن (السويرة) فاحتال حتى توصل بكسوة رفيعة فتأتى له ان يخرج ولم يشعر به ، فنجا الى خارج (السويرة) ، ثم اقبل يلتهم السبيل على رجليه الى ان حط رجله في (الصحراء) ، عند الشيخ ما العينين فتوسط له عند الحكومة حتى سومح ، ثم ذكر له امثالها ، وكان من أعجب الرجال المقتدرين .

ثم ذكر الحاكي ان امره في الراي كان اذ ذاك ضئيلا الى الغاية ، وقد ساد عليه الوزير بسؤدده مع انه ابى ان يخضع له ، قال وقد كان استدعانا الوزير مرة واستدعى الشرفاء آل السلطان وكل الهيأة المخزنية ، فصدر لنا الامر بالذهاب فكنت اوصى أناسا معي ان لا نكشف عن رؤوسنا وطرابيشنا ان اردنا السلام عليه ، كما هي عادتنا ان اردنا السلام على عظمائنا ، غير ان كل من وصيتهم لم يستطيعوا ان يتجشموا ذلك ، واما أنا فقد لاقيته وصافحته يدا بيد لا غير ثم ذهبت قدما وحين سامت مجلس الشرفاء كشفت عن رأسي وجنحت بأذيال سلهامي فبندقت،فشاهد ذلك فتأثر غاية،فبقيهو على كرسي كبير وحده كأنه سلطان ، والناس كلهم حوله ، ولم يود للشرفاء ما يستحقونه فقد اجلسهم في بهو لا يليق بمكانتهم مع ان غيرهم في امكنة اخرى أعلى شأنا ، وارفع فرشا ورئيا ، فلما جئت حكيت كل ذلك للسلطان ، فأقول له أنظر ما يلاقيه اهلك من صهرك ووزيرك ، وكان السلطان حقا مائلا الى وزيره حتى اننا نتحدث بأن امراة عجوزا الكلاوية كانت تتردد بين دار السلطان ودار الوزير على بغلة كان يسميها - كما احسبه - مزوارة ، وقد يقول لها القائدة تهكما ، وانها كانت تسحر للسلطان لئلا يخرج عن راي وزيره، وكان سوق السحر رائجة في (فاس) وخصوصا بين العجائز ، وكان لها نفسها تاثير على السلطان ، قال حتى انني ابقى اياما لبعدى عن قلب

السلطان ولايثار غيري علي ابتعد ، ولا آتي الا فينة بعد فينة ، وأنا اتحين ان لا احضر مع الجماعة ، لانهم لا يحبونني ولا أحبهم ، ويقولون في وأقول فيهم ، ولكنني مع ذلك ادرك ان السلطان محافظ على العهود نحوي وان كان ما كان ، وحكى ان السلطان مرة امر الجماعة الوزير والقائد المتوكي وعيسى العبدي ان يحضروا في منتزه في الداخل ، وقد أقام لهم حفلة فاخرج لكل واحد منهم كسوة تامة من كساه العليا ، شرفهم بها ، فحين ادخلتهم جميعا عن اذنه ، انفلتت منهم الى المدينة، ومقصودي ان لا أحضر، واحسب انه يحكي الحكاية كذلك وانه يذكر فيها امورا كثيرة ، وحكى ان المتوكي كان طلب اذنا خاصا له ليلبس الرداء، فكان يلبسه مع ان من في طبقته لا يلبسونه ، ثم حكى اياما خرج فيها السلطان للصيد ، ويذكر فيها مالا استحضره كما هو ، الا ان القاضي ابن العربي الدكالي حكى لي – وكان اذ ذاك من الكتاب ومن الملازمين للوزير – ان السلطان تصيد يوما ، فبلغ وقت الغداء ، وكان غداءه أبطأ فاستاذن الكبار الذين معه في احضار ما تيسر مع اصحابهم ، فاحضر المتوكي دجاجات وشيئا من لحم مطبوخ فاذا بالعبدي احضر الشيء الهائل من أنواع الطواجين من الدجاج واللحوم والشواء وكل شيء ، فتعجب كل من حضر ، قال وكان العبدي من أكثر الناس اطعمة ومن انداهم ، ولا يعرف القليل من أي شيء .

ثم ذكر الحاكي منو قال : كانت المالية عندنا هناك قليلة ، لان المال انما يأتينا من المراسي وخصوصا (طنجة) ، وهناك البنك الجديد الذي تتجمع فيه أموال المراسي – أحسبه قال كذلك – ثم من هناك يأتينا ما نريد اما مع الحمارين ، واما في بوسطة بعض الدول ، ثم لما اشتدت علينا الوقائع من الثورة البربرية ، صار المال يتم احيانا ولا نتوصل بشيء آخر لانقطاع الطرق بيننا وبين (طنجة) ، فكنت مرة عند السلطان فحرشته على الوزير ، فقلت له انه احتجن من الاموال ما احتجن مما لا عد له ، فخذ منه ما شئت بسلف حتى يأتي المال ، فارسل اليه – واحسب انه ذكر الرسول هي تلك العجوز – فرجعت بخفى حنين ، فقلت له أرأيت مقدار نصيحة الرجل لك ، مع

انك فوضت اليه في كل شىء،ثم توسطتيوما مجمع الوزراء ففاوضتهم في ذلك، فقلت لهم او ليس بالعجب انكم تحتجنون المال ولا تقدرون ان تسلفـــوه للسلطان حتـى يأتيه من امكنته ، مـع انه انما عليكم نعمته ، فاما العبـدي فانه صدقني في الذي أقوله ، واما الوزير فاحسب انه حكى عنه قولا غيـر سار ، وكان الوزير حقيقة مغرورا ويظن ان السلطان لا يقدر ان يستغني عنه ولو لحظة ، ويقول للناس لولاي لما كان شيئا مذكورا ، فكان كل ذلك يبلغ السلطان فيتحمله جهده .

باشوية منو على مكناس والقاء القبض على اولاد الباشا حمو

قال في يوم تسرب الى السلطان خبر مؤتمر سري اجتمع فيه أحد ابنـاء الباشا حمو المكناسي وآخرون مع احد الاكلاويين يتآمرون على القاء القبض على السلطان ونصب غيره ، فثار ثائر السلطان وانقطع آخر خيط بينه وبين الوزير ، وقد تمثل له منه كل ما كنت أقوله له فاستدعاني ليلا ، فتآمرنا فيما يصنع ، فاتفقنا على ان أبكر انا الى (مكناس) ساريا اليها ، فالقي القبض على أولاد الباشا حمو ، وفي ذلك الوقت ، في وقت صلاة الجمعة يلقى القبض على كل الافراد المتهمين في (فاس) ، فسريت في كبكبة من اصحابي من غيـر أن يعرف احد ، فوصيت اصحابي بما نصنعه ، فوصيت بعضهم ان يتفرقوا في مسامتة الابواب حتى تكون في ايدينا بمجرد ما نلقي القبض على غرمائنا ، فدلفت الى الدار بقليلين ، فتلقانا اولاد الباشا فدخلنا ، فاحتلت حتى حلت بينهم وبين اصحابهم فأبلغتهم بلطف أمر السلطان ، ثم تمكنت في الدار ، في حين أن اصحابي يتمكنون من الابواب فلم يشعر المكناسيون حتى تم كـل شىء ، فدخلت وسط الدار بعد ما أمرت بالعيال الى دار على حدة في صيانة ، قال وكانت ابنيتهم فتح بعضها في بعض ديارا ديارا ، ثم القيت يدي على كل المتاع وعلى الخدم ، فكان من أعجب ما رأيت امرأة بادنة بلغت من السمن حتى

لا تقدر ان تتخطى عتبة باب امامي وكانت تسحر لاهل الدار وتستخدمهم فيما تزعم الجن ، فسألت عنها ، فقلت لها تديدا لا بد ان تباعي انت ايضا مع الخدم ، فانك امة فصارت تسترحمني فاذا ببعض الطوائف هناك احسب انه سماها عيساوية جاء عندي افراد منها فطلبوا مني اطلاقها ، لانها منهم في مكانة ، وأحسبه ذكر انهم قالوا انها زوجة مقدمهم ، فتركتها لهم ، قال ثم دخلت الى قبة ، فوجدت فيها ناموسية من أعلى الاصناف وقد أديرت بها سجوف من الثياب السودانية الملونة وعلقت فوقها مجاديل حرير كثيرة جدا ، من أحسن المجاديل ، وعلى رأس الناموسية طربوش كبير وعمامة مسنديرة كأنها عمامة العبد الذي يمشي امام السلطان عادة ، فزحزحت السجوف فاذا بحليب وتمر في وسط ذلك ، فتعجبت مما رايت ولم أفهم المقصود به ، فسألت فقيل لي ان تلك المرأة هي التي تصنع ذلك ، وتقول انها ضيافة الجن ، قال فأمرت بعض اصحابي ان يزيل ذلك فاستحوذ عليه الخوف فاعتذر من الاقدام خوف ان يمسه سلطان الجن حين سمع ما سمع ، فجئت أنا فأزلت ذلك بيدي ، ففرقت المجاديل على اصحابي ، وحرمت من بينهم ذلك الرعديد ، ثم ذكر الاثاث الهائل الذي وجده في الدار ، قال ومن بين ما وجدته بيت كبير من الكتب فلم ابال بها ، ولم اندم قط في عمري كما ندمت على عدم حوزي لتلك المكتبة الهائلة ، ولم احمل منها الا بعض مذهبات ومصحفا كبيرا وأرانيه من عنده ، وهو مجزأ على ثلاثين جزءا ، كل جزءين في جزء ، والجزء طويل في مقدار الذراع وعريض اكثر من الشبر ، وخطه غليظ متوسع الحروف حتى ان كلمة - فسيكفيكهم - ملأت سطرا واحدا ، وبين كل آية وآية ، دائرة في قدر ربع ريال حسني ، فيها تزاويق نفيسة ، قال وكان المصحف كله تاما عندي حتى استل منه بعد الاجزاء كاتبي في (مراكش) ابو عبد الله ، وقد كان عندي في امانة تامة ، فظهر بعد ذلك انه خائن لاسراري ولرسائلي ولكتبي ، فظهرت بعض تلك الاجزاء عند الحاج التهامي ، وهي عنده الى الآن ، قال ولو كنت اعلم ان الكتب لها هذه القيمة التي نراها الآن ، لكنت جمعت مما يدور تحت

يدي اذ ذاك مكتبة نادرة ، ولكانت مكتبة آل الباشا حمو كلها عندي ، غير اننا اذ ذاك انما نبالي بالكلمة وبالاثاث ، واما بالمال وبالكتب فلا ، وها نحن أولاء عشنا حتى عرفنا ما للمال وما للكتب من الاهمية الكبرى ، قال وكان سبب جمع تلك المكتبة ان الباشا حمو كان رجلا جديا يربي اولاده تربية صالحة علمية دينية ، وكان له بعضهم يقرأ فظهرت نجابته ، فكان يأمر بشراء كل كتاب ظهر في (مكناس) وفي (فاس) ، فجمع آلافا ، قال حكى لي بعض آل الباشا ان للباشا من همة الدين والحضور في الصف ما كان له مفخرة في حياته ، حتى في الصبح فلا يصليها الا في المسجد خارج داره ، وياويل من لم يصل معه هناك من أولاده ، فانه لا يرحمهم من الجلد العنيف ، حتى ان بعضهم حكى عن نفسه انه ربما أعجله الحال فحضر معه بالجنابة خوفا منه ، وكان لا ينام الصبحة ، بل كان يبكر الى بستان ازاء داره يراقب الجداول والضفائر بنفسه ، وربما عمل بيده حتى يصلي الضحى ثم يدخل فيفطر فيخرج الى الناس .

قال ثم انني تعينت باشا (مكناس) بعد ما تم الامر كما ابرمه السلطان، وقد القى القبض على كل المتهمين في (فاس) ، فسقط في يد الوزير حين جئت الى (مكناس) من غير استشارته ، ثم كان هناك اناس من اصحابه في ارض وأحسبه قال انهم يظلمون الناس فضربت على ايديهم ، وبعد حين اقتضت المصلحة ان يتعين في (مكناس) غيري ، فأشرت بفلان الذي اشتهر في باشويتها بعد الاحتلال ، واحسبه سماه ابن السعيدي وكان مني ومن أصحابي فاخترته لذلك من غير ان يهتدى اليه احد ، وسيرى القارىء بماذا جازاني بعد .

اقول ان كل هذه القضايا التي ذكرتها في (فاس) كقضية الكتاني وثورة (زمور) وخروج الوزير الى (مراكش) ثم رجوعه منها ، وقضية (مكناس) هذه ، لا يفهم القارىء ان هذا الترتيب الذي جاء هنا كان هو الترتيب الحقيقي لها ، فانني لم أكن استحضر كيف كان يرتبها ، كما انني لم استحضر ترتيبها

كذلك في التاريخ ، وانما اذكر القضايا المتقدمة بحسب ما يتيسر ، فلا يتوهمن القارىء مما أقول غير ذلك فيهم .

عــــزل الــوزيــــر

قال ثم ان السلطان بعد ما فسد ما بينه وبين الوزير ، وانا ازيد النار حطبا ونفخا ، وأحقق له ان له يدا سرية مع بعض الدول ، صار يتطلب فرصة ينحيه فيها ، أقول ولم يكن الحاكي يقول ذلك الا عن اعتقاد منه غير اننـــا بحسبنا ان نقول لا ندري ، وكثيرا ما يذكر ان سفير الدول التي تبغــض السلطان ويبغضها كان دائما يختلف اليه ، ويقوى ذلك بشواهد اخرى ، والله اعلم بالحال وغدا ستبرز الحقائق واضحة .

قال وفي يوم وقد بلغ السيل الزبى استدعى السلطان فلانا فامره ان يبلغ الوزير الامر بان يلزم داره ، قال فتبعت المأمور ، فأمره بالجري بكل ما فـي مقدرته ، خوف ان يبدو للسلطان فيسترد منه الامر ، وانا اعرف الناس بكثرة تردد المولى عبد الحفيظ ، منذ كان في (فاس) ، حين ذهبت عنه تلك الصلابة التامة وبذلك انحلت العقدة ، وتعين وزير آخر فكان ما كان .

اقول أن القاضي ابن العربي الدكالي حكى لي وهو من الملازمين للوزير المذكور ككاتب خاص له ، ومن المقربين اليه ومن الذين كانوا صحبوه الى (مراكش) قبل هذا العهد ثم رجعوا معه فمروا بـ (الشاوية) ، قال ان الوزيـر لما عزل من الوزارة ومرت ايام ضاقت فيها نفسه ، ذكرته في كتاب كان امرني بحفظه يوم كنا تلاقينا في (زطاط) مع الرؤساء المحتلين في (الدار البيضاء) ، وقـد كانوا تعرضوا له كوزير الدولة ، فاحسنوا لقيه ، فوجده كتابا الى قونصـو (الدولة الفرنسية) بـ (فاس) ، يومر فيه بملاحظة الحامل ، وبالاخذ بيده ، قال وبذلك يعرف ان ما يقال من ان له يدا سرية دائمة مع هذه الدولة غير

صحيح ، والا لاعتمد على ذلك منذ يوم عزل ، مع انني رايته بمجرد ما توصل بذلك الكتاب صار يسترجع حياته بالامن على نفسه وعلى مروءته ، قال ما ذلك الا ان من لاقاهم في (زطاط) تقربوا اليه بذلك فقط ، ولم يكن مهتما به ، واكبر دليل على ذلك نسيانه للكتاب نسيانا تاما حتى ذكرته به ، هذا ما حكاه لي هذا القاضي ، ثم انني راجعت الحاكي منو فصار يحتج بأمور لم يكن ابن العربي ليطلع عليها اذ ذاك ، فراجعت أيضا ابن العربي فأقرأنه لم يكن له اطلاع اذ ذاك لانه لم يعد مقامه ككاتب صغير في ركاب الوزير ، والكاتب الاول الذي يتولى كل شيء هو الزموري ، ثم قال ان ادريس منو هو في الحقيقة الذي يطلع اذ ذاك على كل شيء ، وذلك اذ ذاك كالشمس في رابعة النهار ، والوزير فمن دونه يعلمون انه عند السلطان غيرهم عنده ، فهو المستشار الخاص وصاحب سر السلطان يحسب له الوزير فمن دونه حسابا كبيرا ، هذا ما قاله ابن العربي وهي كلمة ينبغي ان لا يغفل عليها من يقرا هذه المذكرات ليعلم مقدار من تحكى عنه من رجال ذلك العهد .

قال الحاكي منو ، ثم ان السلطان ألقى القبض على احمد الزموري الكاتب الاول الذي كان عضد الوزير المعزول ، فسجنه وصادر امواله كلها ، وكان سجنه مائة يوم ، ثم ذكر ان كل تلك الدواهي البربرية صدرت من سوء ادارة الزموري ، لانه كان اليد اليمنى للوزير ، وكان يقول ذلك من غير ان يظهر منه انه تحامل على الزموري ، وحين جالست ابن العربي وسألته عنه اشمأز من ذكره بادىء بدء ثم صار يكيل له جزافا كل تهمة ، ويرميه بكل سوء ، اقول حتى انني لاحمل بعض ذلك على التحامل الشخصي ، والله اعلم .

الحاكي خليفة مفوض على الجنوب

قال منو : ثم ان السلطان اراد أن يقص أظفار الاكلاويين فاعتمد على نصحي له لان مجده مجدي وحياته حياتي ، وعلى ما يتحققه بيني وبينهم فندبني الى (مراكش) ، فاستعملني هناك ، واحسب انه ذكر انه كان حينا باشا (القصبة) وحدها ثم تعين ايضا باشا المدينة ، ثم تعين مفوضا عاما للسلطان في كل (الجنوب) ، أقول هكذا ترقى بسرعة ، فعزل الحاج التهامي عن (مراكش) وفي اثناء ذلك او قبله بقليل قدم الوزير المدني معزولا الى داره بـ (مراكش) ، وقد اذن له السلطان كما كان المتوكي وعيسى العبدي ايضا جاءا الى دارهما ، قال الحاكي فأيدني السلطان برجالات من الجند كالقائد الناجم فتولى على قبائل (سوس الحوزية) او على بعضها ثم صار كل القواد في (الحوز) ، تحت يدي ، فصرت اجرى في قص أظفار الاكلاويين ، فانا الذي وقفت حتى كان حمو الاكلاوي قائدا رسميا ، ولا أدري أفي هذا الوقت ام قبله، وما قصدي بذلك الا أن أجعل لبني ابيه ضدا منهم ، ثم ان امري منسحب أيضا الى (تارودانت) فعينت هناك من فيه ، وأحسب انه ذكر انه هو الذي عين بامر سلطاني القائد كبا .

اقول انني سمعت ما يتايد به هذا من انسان كان يحكي منافسة بين قائد هناك حول (تارودانت) وآخر ، فجاء عين احدهما يحوم حول مجلس منو فسمع شيئا فطار به الى صاحبه ، فكان ذلك هو السبب حتى دارت واقعة ، ولم أكن على تحقيق من مدار تلك القضية ، وانما المقصود ان يتحقق ان يده ممتدة ، وان قوله انه مفوض في (الجنوب) صحيح .

قال جاء القائد المدني كما كان يسميه ولا يسميه بالوزير الى (مراكش) ، فانخنس في داره ، وفي يدي انا كل شيء ، فصادفته مرة ازاء دار القائد المتوكي في (الرميلة) ، وهو على بغلة فبادر بالنزول فسلم علي كما قابلته أنا ايضا بمثل أدبه ، وقد استحييت له والله واخذني الخجل حقا،وقد كنت اظن به أن لا يقابلني الا باشمئزاز واعراض كما كنت أقابله به أيام عزه ، غير انه ليس هناك ، ثم صادفني يوما آخر في دار المتوكي فصار يتشكى علي من الدهر وانه متوقف ، فأردت الافضال عليه ، فقلت له كل ما تتوقف عليه فاشر الي به ، فاننا على كل حال اخوان رغم كل ما وقع ، والحقيقة انني متأثر بخضوعه لي ، ومن كونه بعد ان كان في يده كل شيء زال منه كل شيء، فأردت مراعاته لمكانه ايضا من السلطان كصهر له ، فذكر انه يحاول ان يتم دارا له بالبناء ، فأمرت بكل ما يتوقف عليه من جير وآجر فيأتيه ، ووصيت على ذلك الامناء ، كما أمرت امين الاهراء المخزنية فيسرب اليه كل شيء من القمح والشعير ، لان (القبائل الحوزية) كلها زالت من أيديهم .

ثم انه حكى أمورا وقعت في (مراكش) ، منها انه جلس مرة في داره فسمع هيللة الفقراء الدرقاويين تملأ الافق امام الباب ، فسأل فقيل له : انهم جاءوا لملاقاتك ، فأمرت ان يدخل الي منهم الرؤساء ، فدخلت علي جماعة ، فأبلغوني ان شيخهم سيدي عبد الرحمن توفي ، واننا اخترنا هذا في مقامه فمالوا الى شاب منهم ، فقلت لهم ، ان امر ذلك اليكم ، فانتم أدرى بمن يليق لمركز شيخكم ، ثم في اليوم الثاني رجعوا الي وبينهم ذلك الشاب ، فقالوا انه ظهر ان نقدم آخر فأشاروا الى واحد كبير السن ، فالتفت الى ذلك الشاب فرأيت عليه سحابة من الخجل ومن الصغار لذلك الذي فعلوا به ، فرققت له ، فقلت لهم ان الامر حينئذ لعب وهزء ، ان الامر قد تم امس ونفذت به الرسائل الى السلطان ، ولم يمكن الرجوع ، فعجبت منهم حين تبدلوا في لحظة ، فقالوا حقا ان هذا الشاب افضلنا ، وهو أهل لهذه الرتبة ، ولا يستحقها سواه، وانما كان خطر لنا ان من بيننا أسن منه ، والآن جزاك الله خيرا فقد جعلت

(الدال) غمره

السيف في غمره الذي خلق له ، فكانت عندي عبرة ، فقلت احتى في الزوايا هذا ؟ وكان الحاكي من الذين يرمون ارباب الزوايا بكل حيلة ومخالفة لاصول الدين ، حتى انه احيانا يفرط في ذلك ، وطالما حاورته فيرجع قريبا الى الوسط الذي هو الطريقة المثلى ، وكان يحكى انه كان عاين في الشيخ احمد الشمس يوما صغار نفس مستغرب ، وذلك يوم رجع الشيخ احمد الهيبة عن حضـرة السلطان بـ (فاس) ، وذكر حكاية غريبة لم استحضرها كما هي ، اقول ان لهذا الشيخ مكانة عن كل الذين خالطوه تجاوز بها القنطرة ، وكان يحكـي أيضـا ان الشيخ ماء العينين كان متى ورد على (الحمراء) يتلقى اعظم لقاء وذلك في ايام احمد ، حتى انه ليتحين غسل لباسه بأيدي الشريفات في دار المخزن ، ويذكر انه يؤثر في احمد كثيرا ، ويقال انه كتب له تمائم وبهـا تم امره ، قال ان ذلك متداول ، كما احسبه حكى ذلك ، وذكر ان هذا الشيخ كان ورد مرة اذ ذاك فانبث الاعراب يقصون عنه من الكرامات غرائب ، ويحثون الناس على الزيارة منه والاخذ عليه ، ، وتقديم الهدايا ، فلا يبقى احد من الوزير الى العون الصغير الا قدم له شيئا حتى انا كنت اذ ذاك على تلك العقيدة فقدمت له جدول حرير ، أحسبه قال ذلك ، ثم انه ورد أيضا في ايام خلافة المولى عبد الحفيظ بـ (مراكش) ، فلاقاه بما ينبغي من الاكرام ولكن كلف في الحضرة علماء شنكيطيون يبثون حول كل الطرق ما يبثون ، فبذلك تأثر المولى عبد الحفيظ ونحن معه حتى لم نعد ننظر الى مثل هذا الشيخ بما كنا ننظر به إليه قبل ، حتى ان الشنكيطيين يرمونه بانه يصلي العشاء قبل الوقت ، فانه بمجرد مـا يصلي المغرب ويقرأ الحزب يصلي العشاء ، فقاموا ضده حتى أنهم راقبـوا الشفق فبمجرد ما غاب اذن مؤذن المدينة ، في حين ان الشيخ صلى قبل ذلك بكثير ، اقول ان هـذا اشتهر عن الشيخ ولبعـض اصحابه مؤلف في ذلك ، ومجمل الامر ان الحاكي منو تأثر بذلك الوسط ، فلم يزل دائما ضد كل ذلـك ويسميهم خرافيين ، ولا يكاد يسلم لاي انسان ، وكان مبداه مبدا اهل الحديث الذي كان عليه المولى عبد الحفيظ اذ ذاك ، فساد على مجلسه ، وله في ذلك قصائد ومؤلفات ، ثم ذكر انه رجع عن ذلك بعد ان اعتزل السلطنة ، وهـذه

الحالة أثرت على الحاكـي حتى انه يترك الجمعـات بحجة انه ليس فيها الا الخطب الطافحة بالاحاديث الموضوعة ، فحاورته يوما في ذلك حتى رجع فصار يحضر الجمع ، وقد قيل له عن ذلك في (زطاط) فقال ان فلانا ردني عن ذلك ، ولا أعلمه الا انه يصلي ، كما اراه ونحن معه ، ولا اعلم عنه في باطنه غير ذلك اصلا ، وسمعت مرة ابن العربي الدكالي القاضي يذكر عنه انه كان قرب اناسا غير محمودين ايام باشوينه على (مراكش) ، ولعله يقصد بهم الاعوان ، ولا ريب أن أمثالهم لا يخلون من سفهاء يسافهون عنهم .

ومما وقع له ايضا كما ذكره ايام باشويته ، انه القى القبض يومـــا عـلى انسان له يد مع لصوص سرقـوا شيئا ، قال فجاءني الفقيه السباعـي يتشفع فيه ، فأبى ان يسمع مني ما أذكره وانا اقول له انك بهذه المنزلة التي انت فيها لا ينبغي لك ان تتشفع في معين اللصوص ، فأصم اذنيه فجلس أمام بابي حتى اطلقت له الرجل مستحييا من شيبته ، وكان يرمي هذا الاستاذ بأنه يحب دائما الخوض ، ولذلك سجن مرات ، ايام المولى الحسن وفي ايام احمد ، اقول حكى لي ولد القائد ابن بـل انه كان مسجونا مع الاستاذ أيام احمد بن موسى ، ثم تعرض السباعيون للشيخ ماء العينين وقد مر ببلدهم الى (مراكش) ليتشفع في الاستاذ اخيهـم ، فشفعه فيه أحمد ، غير انه قال له لا يطلق حتى ترجع لئلا يدهمك الناس بمثل ذلك ، قال محمد بن بـل فدخل علينا احمد ولد الاستاذ في السجن ، فارسل الي فحملني البشارة الى والده ، ويقترح ان يكتب الى الشيخ يشكره ، قال فما قلت ذلك للاستاذ حتى ثار وقال لا والله لا اشكر الا الله ، وهو وليي ونصيري ونعم المولى والنصير ، فغلب عليه حال ، حتى ندمت على ذكر ذلك له ، سقت هذه الحكاية لتعرف نفسية ذلك الاستـاذ الذي وصفه منـو بما وصفه ، وولد ابن بـل هذا الحاكي توفي بسبـب سقطة اصابته في المرحاض وقد دخل اليه في (بنگرير) ، وقد اجتمع هنـاك كل (الرحامنة) عند القائد العيادي ، فدخل المرحاض ليتوضا وكان دينا محافظا على صلواته ، فسمع سقوطه فحمل الى (مراكش) في السيارة مغمى عليه حتى

هلـك في ليلتــه ، وهو من اودائنا رحمه الله ، وكان ابوه قائـدا كبيرا علـى (الرحامنة) مذكور ، وموت محمد بن بـل في صيف سـنة 1355 هـ .

حكايات عن المولى الحسن مع عماله

وحكى منـو ايضا حول قيادة رجل على (دمنات) حكايات لم استحضرها كلها ، وانما استحضرت انه قال كان هناك في (دمنات) قائد كبير ايام المولى الحسن ، وكان متمولا ، فابلغ القائد المدني - كما أخبر به هو حاكيا عـن نفسه كما قاله منـو - خبرَ بِنَائِه لِقُبة كبيرة في داره زلجها وزوقها ، وكان المولـى الحسن مع اهتباله بالبنـاءات وبالصناعة العايـا فيها ، لا يحب ان يشتغل بذلك قواد البادية ، لئلا يؤديهم ذلك الى امتصاص اموال الامة ، فمـر بالقائد في (دمنات) ، فأمر بافراغ دار القائد للنزول فيها ، فدار في قبـاب الدار ، ولم ير الا الجبس والجير المعهودين ، فاستدعى المبلغ فبحث هذا حتى عرف من بعض بطانة ذلك القائد ان ذلك في القبة الفلانية ، وانه حين احـس بمجيء السلطان امر بالكتان فاحيط بالجميع فوضع فوقه الجبس والجير ، ثم يسهل بعد ذلك قلعه بازالة الكتان،ففتش في ذلك ، فوجد الامر كما ذكر ، فغرم السلطان القائد غرامة باهظة ، وقد حكى ان القائد المدني اخبره ايضا ، ان الكـتناني الكبير والد القائد الطيب كان أهدى بنتا من بناته الى المولى الحسن تزلفا اليه ، قال فقلت للسلطان لا تقربن بنت الكـتناني ، فانه كثيرا ما يحدث نفسه بان يفعل كما فعله مهدي الموحدين ، ويقول ان عنده جفرية فيها انـه متى تزوج سلطان بنتا من بناتهم ، فان ذلك علامة وقت تمام الامر للكـتناني فيفعل فعل المهدي الموحدي ، قال فكان ذلك هو المانع حتى نحى السلطان عنه الكـتنانية فبقيت هناك في دار المخزن حتى زوجها السلطان من انسان ، قال الحاكي وانا اعرف هذه البنت في صغري ، كما انه حكى ايضا في معـرض غيرة المولى الحسن من تشبه قواده البدويين به ان زوجة لعيسى العبدى كانت

تقرأ وتكتب وكانت قيمة على داره انم القيام،ويذكر في ذلك غرائب فلا يعدو عيسى أن يعلمها ببطاقة تصلها ، فاذا هي تقوم بكل شيء ، وان بلغ ذلك من الكثرة ما بلغ ، فكتبت اليه مرة ، بطاقة فيها ، ان الغداء سيدي موجود ، ففي اي محل يوضع،فوقع لها توقيعاً ملوكيا ـ ذكره ونسيته ـ فبلغت البطاقة نفسها المولى الحسن فغرمه غرامة باهظة،وقد سمعت منه يوما فيما يتعلق بعيسى انه كان حكى له ان أخا له كان قائدا قبله ، وكان عيسى خليفته يستخلفه في القبيلة حين يجيش مع السلطان،قال فخطرت امرأة مغنية بلدنا ـ الشيخة ـ فكنت وانا شاب اذهب مع رفقاء لي بها الى غار بعيد من العمارة تغني لي،وقد حصرنا على ان لا يعرف ذلك احد ،لان ذلك مستغرب في ذلك العهد الذي لا يعرف الناس فيه الا الجد ، وويل لمن تظاهر بمثل هذا الشي يشيع في هذه الاعصار ،من التجاهر بالاجتماع،مع المغنيات بين الرجال،ثم لما اراد القائد اخي ان يسافر مرة اخرى الى السلطان ، خرجت مع كل رجالات القبيلة حتى وصلنا محلا نعتاد ان نودعه فيه ، فحين ودع كل الناس ورجعت عنه قليلا امال عنق فرسه فناداني فقال ها أنذا ذهبت فاشتغل ايضا في الغيران بفعلاتك ، لم يعد ذلك ، فتوجه لطيته ، فبقيت مبهوتا ، ولو امكن لي ان أسيخ في الارض لفعلت ، من كثرة ما عراني حين عرف عني ما أنهتك به عرضي امامي ، ثم كان ذلك آخر عهدي بمثل ذلك ، قال الحاكي ، وهو كذلك ، ولا عيب فيه الا كثرة الفتك بأهل قبيلته ، فما اسهل ازهاق الروح عنده ، قال هو او سمعت من انسان آخر،كان جاء الى داره قائد صغير مع اصحابه فتغدوا عنده فخرج معهم الى خارج القرية ثم سقط الزائر برصاصة بعض اصحاب العبدي ، عن اذنه فذهب ذلك كأن لم يحدث شيء ، وقد فعل بجيرانه الدكاليين وامثالهم اعاجيب ، وقد كان أدرك من السطوة والمالية وتاثيل الاملاك غرائب ، خصوصا في العهدين العزيزي والحفيظي . أقول ثم انه بعد الاحتلال سقط بسرعة هائلة فتمشت الدسائس بينه وبين اولاده فتباع املاكه العظمى جزافا ، وغالبها بلا ثمن كزور ظاهر ، ثم سكن في (سلا) ، فاداه الحال وقد خرج كل شيء من يده، حتى احتاج الى شمعة صغيرة كما ذكره لي القاضي ابن العربي الدكالي في

حكاية ، فذهب ذلك القائد الكبير كأنه لم يكن قط مذكورا ، مع انه كان مع المتوكي والكنتافي والاكلاوي رابع اربعة كانوا رجال (الحوز) وما اليه .

ومما حكاه ايضا عن ذلك العهد ، انه وقع بينه وبين القاضي مولاي المصطفى شنتان فاثر في السلطان حتى عزله ، وقد كان هذا القاضي من العزيزيين دائما ، ولا يريد ان يرضخ قط للمولى عبد الحفيظ حتى بعد صفاء الامر له ، وكان يتكلم في السلطان بما لا يليق ، ويدل بمكانه من ابنة المولى الحسن،وقد حكى كل ما جرى بينه وبين المولى عبد الحفيظ بتفصيل،كما حكى ما جرى بينه وبين الحاكي حتى عزل ، فولي مكانه الشيخ بوشعيب الدكالي ، وقد كان مضى أنا ما كان حكاه حوله الحاكي ، وقد تركنا ذلك في الوقت الذي كان فيه لهذا الشيخ مقام هائل ، قال وقد اكتشفت انا منه انه يجازف في أحاديثه ، فلكوني ذا دلال على المولى عبد الحفيظ احاول دائما ان أظهر له العيوب في الذين اعجب بهم ، وذلك مني تتدر احيانا ، وقد كان عند خروجنا دن (مراكش) أولا معجبا غاية بفلان من الكتاب ويسميه بالشاب الناشيء في عبادة الله ، وكنت ارى منه خلاف ذلك ، وفي يوم عملت جهدي حتى رآى الشاب الناشيء في عبادة الله سكران ، فغلبته فيه ، وكذلك دافعني فيما قلتة عن الشيخ الدكالي مع إنني معجب به كما اعجب به ايضا ، ولكن اريد ان اظهر له ان الكمال لا يتم في الرجال ، فراجعني فيما ادعيته ، فقلت له استدعه الآن واسالني عما شئت ، فانك سترى ما أقول لك ، فاستدعاه فجلسنا مليا ثم قال لي يا فلان هل من اخبار خارجية ؟ فقلت له سمعت ان عمارة بحرية من بوارج بعض الدول تجتمع في البحر ، ولا يعلم الى اين قاصدة ، فالتفت الى الشيخ فقال له اسمعت بهذا ؟ فقال ان ذلك حقا مر بأذني ، فجعل يتكلم في الموضوع ، فغمزني السلطان بعينه ، فتداولنا ملاحظات ، ثم غير السلطان الموضوع ، فكان ذلك أول ما بدأ ينظر اليه بنظرات اخرى غير الاولى ، ثم انه حفزه الى ان يسافر الى (الحجاز) ، وان يشتري هنالك املاكا للمغاربة تحبس على المنقطعين منهم ، فوجد الشيخ قانون (الحجاز) على ان لا يشتري

اجنبي فحين كان معروفا هناك اشترى ذلك باسمه ، فرجع بالرسوم ، فلم يكد السلطان يعلم منه ذلك حتى أغتاظ وحمل فعله على انه يحب الاستبداد بالاملاك ، قال فأمره السلطان ان يرجع ولا بد حتى يسوي الامر على ما وصاه به ، فلم يلتق به فرجع حتى فعل ما أمكن له ، قال وبذلك لم يكد يرجع حتى وجد قضية مولاي المصطفى فبعثه قاضيا الى (مراكش) .

ثم حكى انه دخل يوما الى الدار فتطلبت منه جوخا رفيعا فامر بـه لها ثم سألها عما تريده ، فقالت ان لـل ميمونة ولدت ، فقلت ما هي ميمونة فقالت حجرة الزاوية الناصرية ، فقلت كيف تلد الاحجار ؟ فأقبلت الي بالتعنيق وقالت انك نعوذ بالله سلبت حسن الظن ومحبـة آثار الاشياخ ، فهذه حجرة جلس عليها الشيخ وكانت لها استار ولها سادنة ، ثم أنها ولدت حجـرة صغيرة امس كرامـة للشيخ ، فأعلنت بالضحك ، فقلـت لها ، ولماذا الجوخ ؟ فقالت اصنع منها قفطانا للمولودة ، فاستحييت ان اطاول والدتي ، أقول وكان من أبر الناس بها،وكان عجبا في ذلك،قال ثم جازى الله الشيخ الدكالي القاضي فانه بمجرد ما سمع بذلك أمر بالحجر ان يكسر وان يوضع في مدخل مرحاض عـام ، أقول انني سمعـت هذه القضية مرارا من شيخنا الدكالـي رحمه اللـه ورضـي عنـه .

وحكى منـو ايضا ان صخرة اخرى كانت في خارج باب (أغمات) كمـا أحسب ، وكانت بقدر ما يحمله الرجل القوي فكانت بعيدة من الباب ، وكان الواردون الى المدينة يتنافسون في حملها وفي مقدار الزمن الذي يتقدمون بها، ولم يزالوا كذلك بها حتى اوصلوها الى قرب الباب ، ثم حكى انها ايضا دارت حولها حكاية اهتبل بها العامة فتطايروا الى التبرك بها ، ولم أعرف الحكاية كما هي الآن ، قال ثم ان السلطان أقطع له ارضين كبيرتين حول (مراكش) ، ولا تزالان عنده الى الآن ، كما أقطعه دار ابن ادريس في (المامونية) ، كمـا نفذ له دار والده التي اتخذت مركز البلدية بعد الاحتلال في (الجامع الفناء) ، وقد كان المولى الحسن وضع عليها يده بعد القاء القبض على الحاج منـو وكان

يسكن فيها القائد العسكري الاجنبي في عهده ، ثم أزال المولى عبد الحفيظ عنها اليد المخزنية وردها الى أهلهـــا .

اقول لكن رجعت الى مثل ذلك بعد ان ألقي القبض على الحاكي ثم لم تزل كذلك ، وقد اتخذت مركزا للبلدية الى أن بلغني في السنة الماضية 1357 هـ ، انها سلمت لربها ، وانه خربها ويبنيها بناء آخر ، قال الحاكي وكانت ايضـا العرصة الكبرى التي تسمى اليوم بـ (عرصة البيباز) في حومه (دكالة) تحـت ملكي ، ثم نزعت مني حين القي علي القبض ، فدخلت تحت الايدي حتى تمكن فيها البيباز ، وبذلك يعرف مقدار الثروة التي استولى عليها الحاكي حين تعين كبير (المجذوب) سنة 1329 هـ ،وكل ذلك باعتناء السلطان به ، وكان الحاكـي دائما يقول ان كل شيء اذ ذاك كان في يدي ، فلو كنت اعرف أنه سيكـون للمال هذه الاهمية التي لها اليوم لكانت تحت يدي كنوز ، لكننا غير مهتبلين الا بشيئين بالكلمة النافذة وبالاثاث ، ولذلك تهيا لي بسرعة ان تكون عنـدي مـن الصينيات المفضضات فقط وما يتبعهـا من الربعات والمقاريج اثنتـان وعشرون ذهبت كلها من داري يـوم ألقي علي القبض ، وأما ما كان لدي مـن الحيوانات والسلاح وما كنا نهتبل به فكثير ، ثم يحكي انه كان مع قونصو الالمانية في (مراكش) ايضا على حالة واحدة ، ويذكر ما كان يلاقيه من قونصو الدولة الاخرى الذي كان يعين بكل ما في امكانه الانكلاويين اتم اعانة ، فكنت أعاكسها حين يصرح باعانتهم اتم معاكسة ، ويذكر في ذلك حكايات منهـا انه قصده يوما القونصو فوجده فـــي دار ابن ادريس وقد قربت المغرب ، فاستاذن علي فخرجت وقد قدمت لي البغلة لاركب للدار للافطار ، وكان الوقت وقت رمضان ، فوضعت رجلي في ركاب فامرت بدخوله فوجدني كذلك وانـا مستند عـلى السرج فوق البغلة ، وأتكلم معه من بين قربوسيها ، فقلـت له ان الوقت ليس بوقت ملاقاة رسمية ، فان استعجلت فقل ما تريد ، والا ففي الغـد متسع في الاوقات الرسمية حتى ركبت،وقد كان مقصوده ان يؤثر في بتأخيري، فاذا بي كلت له بالصاع الوافية ، وحكى في مثل ذلك حكايات .

ثم حكى كيف وقع عهد الحماية بالتفصيل ، ولم استحضر منه الا انه قال ان سفير الدولة الحامية جاء في اليوم الثاني ولم ينزل الا في الداخل مع ان المعهود ان ينزل كل احد خارجا الا السلطان .

قال ثم حين وقعت ثورة العسكر وقد ذكر تفاصيلها كما سمعه ايضا لانه غير حاضر . جاء عندي قونصو الدولة الحامية فتطلب ان يطلع على مدافع في دار السلاح ، فأمرت بذلك مع المراقبة فأبى ان يصاحبه احد ، ولكنني اخبرته انني الآن مكلف به ، ثم حاول مع آخرين ان ينزعوا بعض لوالب المدافع ، فوجدوا عندي عينا مراقبة ، لان خبر الثورة اخبرني به انسان مع ذلك القونصو جاءه الخبر مستعجلا من بعض رجالات حكومته ، فحافظت على مركزي ، وكان يزعم ان تلك الثورة الدامية كانت باثارة الاجانب بدسائسهم وذلك منه ظن لانه لم يحضر .

قال ثم حملت الدولة الحامية السلطان حتى اصدر ظهيرا الى الحاج التهامي بباشوية (الحمراء) ، فانفت من ان اسلم له ، وقد علمت ان السلطان مغلوب على امره ، فحين عول الحاج التهامي ان يعلن بظهيره في المسجد، قمت على ساق مع كل اصحابي ومن معي من الجند ، واسترعيت على من هناك من قونصات الدول ، فقلت لهم انني لم أتوصل الي بكتاب تخلية من سلطاني ، ولن اتخلف على حمل ماموريتي حتى اسلمها بأمر رسمي ، وها أنذا ادافع عن ذلك ، وكل التبعات تقع على قونصو الدولة الحامية ، فسعى هؤلاء معي حتى رجعت الحالة هادئة ، فاستعددت خير استعداد لان الحاج التهامي رجل حقا ، ولكن يعوزه الرجال ، واما أنا فمعي رجال ، فبقي المتوكي وامثاله مذبذبين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، وقد تحرجت الحالة ، وبقي الامر كله في يدي ، وقد ظهرت صليبا ، وبينما نحن كذلك اذا بأخبار الهيبة ترد علينا ، ثم تبع ذلك أنه مقبل الى (مراكش) ، فالهانا هذا الجديد عما نحن فيه ، مع اننا في اشد الحرج ، وانا لم يخف عني انني انما القي بنفسي الى التهلكة لادراكي ان يد الحماية وكل من تريدهم هي التي ستكون العليا ، ولكنني جمحت باللجام جامحا علي قضاء الله ما كان جالبا ، لمكانة المنافسة المستولية علي بيني وبين غرمائي .

احاديثه عن الهيبة وما اليه

قال اهتز النـاس كلهم بأخباره وخصوصا حين تواتـر ان أهل (سوس) قاطبة قاموا معه ، وانه لاقصد الا الجهاد ، لان الناس ابغضوا المولى عبـد الحفيظ حين وقع الحماية ، وقد جهلوا أنه وقعها مرغما في أوقات حرجة ، وقـد ساد بينهم انه هـو الذي أحب ذلك ، كما كانـوا يلصقون مثل ذلك بالمولـى عبد العزيز بل بوالدهما المولى الحسن قبله ، والناس في جهل عميق عـن الحالة السياسية المغربية ، قال فأفاض الناس في امر الهيبة وانه منقـذ الموقف ، ثم سرعان ما سمعنا بان مربيه ربه قد أقبل بجيش كثيف ، وكان مقبلا بسرعة كما كانت كل اوقات الهيبة اومضت كالبرق الخاطف ، ففتـح الباب لمربيه ربه ولم يعارضـه احد بل لا يمكن ان يـدور في أنفس العامة ان تعارضه ، وقد ثارت نفوسها من الحكومة ثورة عظيمة هائلة ، وبينما انـا أتهيأ للخروج من داري في احد تلك الايام اذ سمعت اصحابي انفسهم يقولون لا والله لا نحارب المجاهدين ، وأسهل علينا ان نحارب هؤلاء من ان نحارب أولئك ، فهكذا كان أصحابي فكيف بغيرهم من عرض الجنود ، ومن دهمـاء الناس ، فلم يمكن لنا الا ان نماشي الوقت ، ولذلك حين قرب مربيه ربه من (مراكش) جـرت مخابرة بين أهل (هشتوكة) الذين يمتون الي بالاخـوة ، فطلبوا مني ان أبادر الـى صاحبهم فقلت لهم ومـن لي بأن أنال منه الامر ، فجاؤوا الي وقالوا نحن وأنت يد واحدة ، فوالله لا ينالك الا ما ينال احدنا ، فبلغوا ذلك للهيبة فاستعاذ بالله ان ينيل مسلما بسوء خصوصا فلانا الذي لي به معرفة قديمة ، قال لانه كان يعرفني في تردداته الى السلاطين ، وخصوصا

في المرة الاخيرة بـ (فاس) حين زار المولى عبد الحفيظ ، ثم حين نزل مربيه ربه هناك ازاء (الصفصافة) بيوم اقترح ان يدخل الى (مراكش) ليحتل (قصبة السلاطين) فقلت لـه حينما لاقيته وذكر لي ذلك ، ان هذا ليس مـن السياسة في شيء ، فاتركـوا (مراكش) وراءكم واذهبوا الى طيتكـم التي الجهاد في (الشاوية) ، فانكم متى دخلتم المدينة ذهبت هيبتكم ، ومقصودي انا بذلك ان أصيد بحجر واحد عصفورين ، ان تسلم دار المخزن من عبثهم لان فيهـا نساء السلاطين واخواتهم وهن امانـات عندي ، وانا المسؤول عنهن ، وأن يسلم لهم أمرهم ما داموا يقصدون الجهاد على ما يقولون لانني ادركت انهـم بمجـرد ما يدخلون (الحمراء) تنحـل عروتهم فيذهب عنهم ملاك امرهم ، وقـد ادركت ان أخذة قبضتهم متراخية ، غير انه ابى ان يصيخ لما أقول ، فدخلت فذهبت توا فأمرت في الحين بسد أبواب كثيرة دون عيال السلاطين وخدمهم ، ثم امرت العبيد ان يحافظوا عليهن الى آخر نفس ، وقد رجوت ان يدخل الاعراب الى (أكدال) فقط ، وهكذا كنت على حزم في هذه الجهة ، كما انني من الجهة الاخرى الدولية حافظت على كل الاجانب الذين في (مراكش) ، فأرسلت الجميع مع خيل وهم على حمير وبغال حتى أوصلوهم الى (آسفي) ، ولم يبق واحـد من القونصات الا قونصو (فرنسا) ، فانني استرعيت عليه بمحضر آخرين ، فقال انني امرت ان لا اغادر (مراكش) وان ادى الحال الى موتي ، فتركته ، فاوى الى دار الاكلاويين عند الحاج التهامي ، وكانوا مع أصحابه الاجانـب ستة كما احسب انه قاله ، ثم بعد يومين من وصول مربيه ربه جاء الهيبـة فنزل (الصفصافة) ، وقد ارتجت القبائل وثارت العامة على رؤسائها والهيبـة ينادي مناديه ان لا قائد ولا شيخ يعني انه ينادي بالفوضى العامة ، حتى ان جندا كان عندي منتظما في (مراكش) وهو غير قليل قد ثار ايضا بدوره عـلى رؤسائه فترك تكنته معلنا ان لا رئيس اليوم ، فكذلك سادت الفوضى من كل ناحية ، قال فليتصور اذن السامع مقدار ما أحس به من ثقل التبعة لو كان وقع شيء ، وانا مكلف بحفظ الامن وبالمحافظة على الارواح والاموال .

قال اجتمعنا حين جاء الهيبة في مجلس عام يضم المتوكي والاكلاويين والعيادي وآخرين كالقائد الناجم وامثالهم ، فلم نجد ما نصنع الا ان نماشي الوقت وما ذلك الا لان قلوبنا متفرقة قبل ذلك لا يامن بعضنا بعضا ، وكل يتربص ان ينال دائما الحظوة ، ثم لما نزل الهيبة في (الصفصافة) ، خرجنا بجماعتنا مجتمعين كلنا في موكب واحد ، فصرت اوصي الجميع ان لا يعاملوا الهيبة بمعاملة سلطان بل بمنزلة رئيس للمجاهدين فاتفقنا على ذلك ، ولكن سترى ما مقدار اتفاقنا لتدرك ما نحن عليه من افتراق الامر ، فاننا حين وقفنا أمام فساط الهيبة خرج الاذن لي بصفتي باشا (الحمراء) ولانني كبيرهم ، فدخلت عليه فلاقيته كما كنت الاقيه أيام زيارتنا ببشاشة ومصافحة واحترام من نوع احترام المرابطين المبجلين، فظلنا نتحادث وأنا أهنيه بالقـدوم وبالانتداب لانقاذ المسلمين ، فكأنه تناسى اصحابي ، فقلت له لا ينبغي ان تهمل هؤلاء القواد الكبار ، فانهم من ذوي الهيآت والاسنان وحرمـة عند كل احد ، ولهم مكانة عند الناس ، فأذن لهم فراعني منهم انهم يبندقون واحدا واحدا ، مجنحين سلاهيمهم ، كما هو معتاد امام السلاطين ، فلم يكد يـرى ذلك منهم جميعا حتى صار يلحظني شنزرا ، فعرفت ان خزرات طرفه من أجل ما قابلته به مع ان الاخرين فعلوا ما فعلوا ، فكان ينقبض مني منذ ذلك اليوم ، غير انني اجرؤ عليه من أجل التقوي باخواني الهشتوكيين ، وانا من قولهم على ثقة ، ثم رجعنا ، فكان مربيه ربه نفذ ارادته في العزم بالدخول الـى (القصبة) ، فبينما انا جالس قرب المغرب متهيئا للافطار واليوم يوم رمضان، اذا بصاحب الخليفة مولاي ابو بكر شقيق المولى عبد الحفيظ يحثحثنـي للوصول اليه الساعة بكل ما في امكاني من سرعة ، فاسرعت عجلا فاذا بـه واقفا دون باب داره وفي يده بندقية والقرطاس في كلتا يديه ، وهو في اعلى غضبه فقال ان هذا الانسان يدخل الان ويقول انه يريد أن أخلى له داره ، فهدأته فلاقيت مربيه ربه داخلا ، فقلت له ماذا فعلت بفلان ، فالاولى هو التاني حتى يفـرغ داره فانها داره التي نشأ بها ، فقال لكنها دار الخلافة فيجب اليـوم ان يكون فيها خليفـة السلطان ، فملت بـه الى محل احسبه ذكر (قبـة النصر) ،

فأرسلت الى فراشي والى نفس عشائي فقلت له هنا المبيت حتى يفرغ الرجـل الدار ، فان هذا ليل ، ثم مررت بمولاي ابي بكر ، فأمرته بالتاني ثم أرسلت اليه من نقل كل متاعه الى دار اخرى ، وأحسبه ذكر داره بالزاوية العباسية ، وهي هذه التي لا يزال يسكنها الى الآن ، قال وكانت تلك الايام شديدة الحرارة الى الغاية ، فان أنس ما أنس انني في أحد تلك الايام حين قاربنا الهيبـة او في اليوم التي نزل منه في (الصفصافة) او في ذلك اليوم نفسه لم استحضر الآن ما قال من ذلك ، أتاني آت فقال ان خيلا طرقت (أكدال) ونهبت من جهته غنما ، فركبت في خيل مسرعا حتى استنقذنا الغنم ، وبلغ الحر من بعضنا حتى استلقى في احدى سواقي الماء يشرب وهو يلهث عطشا ، فكانت شدة تلـك الايام هائلة ، ويذكر من ذلك ما لاقاه من عنت .

قال ثم دخل الهيبـة بدوره الـى (القصبة) ، فجلس فـي اريكة الملوك ، والاعراب الحمقى الهوج يتموجون حوله بلا عقل وبلا حسن تدبير ، وقد اقاموا الفوضى فـي الاسواق بترامیهم عـلى كل ما يعجبهم مع تكالبهم على اهانـة أشراف الناس ، فقد رأيتهم استداروا بالقائد المتوكي فيسمعونه كلاما بذيئا فيه هجر كثير،فأبلغت ذلك الهيبة فقلت له ان الامر لا يستقيم مع هذا ولو يوما، وكذلك يعاملون كل من يرونه حتى انا فقد حاول احدهم ذلك فوجدني غيـر من يعهد فانكفوا عني ، وقد ألفوا ان يربضوا امام ديار الكبار فيبالغون فـي ارضائهم بعطاء ، فجاء اناس منهم الى بابي فحاولوا ذلك فأمرت بأصحابـي فطردوهم فذهبوا مهددين فقلت لهم لا أبقى الله عليكم ان ابقيتم علي ، قـال والهيبة على كل حال ليس من الرجال ولا من العقلاء والسلام ، فقد استدعانـي اثر دخوله الى (القصبة) فصار يستدرجني في الكلام ، حتى بلـغ بي خبـر الشريفات الابكار ، وقد وجدت عبدا نذلا قد أدى اليه اخبارهن كلهن تملقـا وتزلفا ، فصار كلما ذكر احداهن اخبرته بأنها متزوجة في عنق فلان ، وانما لم يدخل بها بعد ، ثم قلت له اين انت من بنات المصلوحي فعنده ما ينبغي ان لا تفلته ، فقال أوهن هناك ؟ فأكدت له ، فهذا هو الرجل الذي يقال فيه انه جاء لينقـذ الامـة .

قال وقد استفرغ جهده حتى توصل بالاجانب الذين كانوا عند الاكلاوي ، بعد ما اخرجوا خفية ، واكد الحاكي ان الذي وشى بهم وانهم خارجون هو القائد المدني تزلفا اليه وخياسة لعهد اخيه ، وكانت بينهما منافسة في كل شيء ، وبعد ذلك بالغت انا جهدي في ان يطلقهم فعرضت عليه كثيرا من المال فابى ، كما حاول ذلك آخرون ، فلم يكن يدرك ما ندندن حوله من ان ايقاع شيء فيهم لا يجر الا بوارا على الامـة .

قال وفي الايام الاولى التي دخل فيها الهيبة اول رمضان جاءني رسول من عند المولى يوسف ، وقد بويع بعد ما تخلى المولى عبد الحفيظ ، فأتاني برسالة امرني فيها ان آخذ له البيعة فحين قرأت الرسالة قلت له هانتذا ترى ما الناس فيه ، فلا يمكن ذكر شيء من هذا اليوم ، ونحن مغلوبون على انفسنا كما ترى ، ثم اعطيته 20 لويز ، فذهب فأبلغ المولى يوسف كذبا وبهتانا انني سببته ، ولعن الله الكذابين ، فكان ذلك هو الذي انغل علي قلب المولى يوسف دائما ، مع انني كنت دائما في أيام المولى عبد الحفيظ اتوسط له عند اخيه وأزين له وأزيل ما عسى ان يقوله عنه الافاكون ، حتى صار يعتمد عليه ، ويقدمه لخلافته فكان ذلك هو السبب حتى ذكره يوم عزم على التخلي عن العرش ، وقال انني مدين للمولى الحسن ولاولاده ، فحاشا ان أخون اي واحد منهم ، فانهم ارباب نعمتي دائما ، قال وبينما أنا ألاقي العنت من المحافظة على اهليهم لئلا يعبث بنسائهم الاجلاف في (مراكش) صاروا يسمعون عني ما لم أكن أقبل ان يقال عني فضلا ان أقوله انا ، كلا ثم كلا ، ولا يعلم الا الله كم امتعضت يوما وجدت فيه الشرفاء واقفين في طريق الهيبة ، فأتمنى لو استلقى عليه احدهم ليزهق روحه ، ثم يكون ما يكون ، ليمثلوا الشمم الذي احبه منهم ، فان هذا انما هو مرابط كان يتكفف أيديهم ثم يقفون له اليوم ، فكانت ساعة مرة اعظم المرارة عندي ، اقول طالما يكرر هذا المعنى ، ويدافع عن الشرفاء بكل جوارحه .

قال ثم ان مربيه ربه الذي توجه الى (بنكرير) انهزم فذكر لي ان الحالة

سيئة ، وقد تقوى عندنا ان جنود الحماية قادمة لاحتلال (مراكش) ، وفي تلك الليلة لم يكن همي الا ان أتفقد اولئـــك الاجانب لاعلم الا يزالون احياء ام لا ، لانني عزمت ان هلكوا ان أركب جناح النعامة ، فأرسلت صاحبا لي ببندقيته وسط الليل مع عبد فقلت لهما تجسسا في الدار الفلانية ، وهي التي كانوا فيها، فان قتلوا فجيئا معا بسرعة ، والا فليبق أحدكما ويأتيني الآخر بالخبر ، وذلك الهم الشديد حفزه مني كتاب توصلت به ذلك اليوم من رسول ارسله قائـــد الحملة القادمة وفيه بعدما سلم علي وعلى كل اهل (مراكش) ، ان الاهم المحافظة على ارواح اخواننا ، فانها ان أزهقت فسنجعل (مراكش) عبرة في كل (افريقيا)، فلذلك كان كل همي أن أتفقدهم ، فلما عرفت أنهم لا يزالون احياء عزمت على ان احول بين الاعراب وبينهم بالقوة ، فذهبت مع اصحابي فلم أكد أصل براح دار المخزن حتى جاءني بواب فذكر لي ان مربيه ربه يدق الباب الخارجي ، فأمرت بالفتح له ، فذهب توا يدق ايضا باب دار المخزن بكل شدة،فلما فتح له وتلاقى مع الهيبة قام امرهم على ساق ولا يعقل احدهم صاحبه ، فوضعت اصحابي أمام دار اولئك الاجانب ، فاذا بالهيبة يخرج أثقاله وعياله ، والآخرون يجرون والحركة قائمة قاعدة ، والفجر قد خط في الافق ، وعند الاسفار الاول خرج الهيبة فصادفني ، فقال ما هذا يا فلان ؟ فقلت له انتم الذين خالفتم فقد قلت لكم لا تدخلوا فأبيتم الا ان تدخلوا ، فقال لا والله ما هنا الا اصحاب النصارى ، فأردت ان أقطع كلامه فقلت له الامر لله ، ثم قلت لبعض اصحابه اياك وسلوك طريق (امينتانـــوت) ، فعليكم بطريق (وادي النفيس) ، ثم صادفت امامي امراة من آل أحمد الهيبة قد سقطت بها البغلة ، فتجاوزها شبان معها ، فناديتهم لا تخافوا منا نحن ، فاركبوا صاحبتكم ، ثم وقفت انا بنفسي فأعنتها انا وواحد مـن أصحابي حتى ركبت ، هذا وأحمال الاثقال والدراهم تجر امامنا ، ولو كان منـا قصد نهب لأتينا اذ ذاك على الشيء الكثير ، ولكننا لا نريد ان نرزأ اخوانــنـا المسلمين المستضعفين ، ثم انهم تجمعوا ازاء صهريج البقر فوقفوا ساعــة قليلة ، ثم صمدوا الى طريقهم مجتمعين ، وكان ذلك الوقت مشرق الشمس ، وقد بدأت خيل الاكلاويين والمتوكيين ينهبون الطرقات ، ويفتكون بالارواح

ويسلبون كل من يعلمونه اعرابيا او سوسيا ، قال واذ ذاك ذهبت الى دار المخزن فوجدت طرطور الهيبة وكأنه ذهل عنه موضوعا ، فتناولته وفيه كثير من التمائم ، وقد كان عندي ثم صار الى يد الحاج التهامي ومن يده الى يد آخرين ، قال وهو اليوم في متحف (باريز) ، ثم ذهبت والشمس على الافق الى الدار التي فيها أولئك الاجانب ، فدخلت عليهم ، فبمجرد ما رأوني تطارحوا علي والتفوا في وهم في حالة غريبة من الوسخ وطول الشعر في قمصان طويلة، فهدأتهم وهنأتهم بالسلامة ، ثم جاء بعدي الحاج التهامي والقائد المدني ، وبعد ساعة غير طويلة سمعنا المدفاع من الحملة القادمة،وقد بلغت قنطرة (تانسيفت) وكان علامة نمرت كرته فوق (مراكش) فأتى القونصو من أولئك بخرقة فوق عصا ، فقال قم ألق قائد الحملة بهذا ، وقد كتب مع ذلك بطاقة فامتنعت وما منعني الا الانفة ان أكون اول من يسلم من بين المسلمين ، وحثني القونصو وهو يقول اننا مدينون لك بالحياة ، فحين انيت اخذ ذلك القائد المدني بيده فخرج فكان ذلك سبب حظوته ، لانه ادعى انه المنقذ مع انه هو الذي وشى بهم اولا الى الهيبة حين سربهم اخوه الى المنجأ ، ثم بعد ذلك رجع أولئك انفسهم عما يقرون به لي فنسبوا لي كل شيء ، مع انني بالغت في استنقاذهم جهدي ، نعم ان للقونصو ما يقول في معاكستي اياه قبل هذه الساعة ، ثم اننا خرجنا جميعا كل أعيان (مراكش) ومعنا مولاي المصطفى وهو من الفرح يكاد يطير ، وهو على بغلة فارهة وبحلة باهرة ، والشيخ الدكالي معنا ، فحين وصلنا براح (گليز) حيث قابلنا قائد الحملة الجنرال منجان ، خاطبنا خطابا قليلا ، قال في آخره انني في أشد الاعياء الآن ، غير انني اعلن ان المكلف بباشوية (مراكش) هو الحاج التهامي منذ الآن ، فأجابه الشيخ الدكالي بخطبة فيها التنويه بشفقة الدولة الحامية ، وذلك منها متواتر في كل اصقاع الارض . فأعجب بذلك المخاطب ، فسأل عن صاحب الخطبة ، فقيل له فلان ، قاضي (مراكش) الحالي ، فقال بكل بشاشة ، ان مثله هو الذي يقدر الدولة الفخيمة ، فرجعنا ، وفي تلك اللحظة انطوى العهد المراكشي القديم ، فقد انطوى صباحا امر

الهيبة ، ثم انطوى الآن عهد باشوية حاكينا ؟ فانتظمت (مراكش) في عهد الاحتلال والسلام .

أقول ان كل هذا التنظيم الذي نظمت عليه اخبار الهيبة أزعم انه في غايته ، لانني كنت اسمع منه ذلك مرارا ، ولعل الحافظة لم تخني في أي شيء منه ، وقد أوجزت فيما لم استحضر تفاصيله ، كما انني فصلت ما عرفت ، الى انني فيما ذكرته مما صنعه الحاكي بعد خروج الهيبة الى خروج كرة ذلك المدفاع ، فانه وان حققت قضاياه وذكرتها كما هي لا أتحقق في أي وقت سمع كرة المدفاع ، ولكن الذي غلب على ظني ما ذكرته ، والله هو الذي لا ينسى ولا يغلط وحده

بقايا ما يحكيه عن المولى عبد الحفيظ

كان يذكره دائما بكل اكبار ، ويثني على حيائه حتى انه لا يقابل احدا بسوء ، قال وكثيرا ما يغفر لمذنب بمجرد ما يقف أمامه متأثرا باسترحامه ، وقد نشأ طامحا مولعا بالعلم كما ذكرناه ، وبالصيد خصوصا أيام خلافته ، فانه لا يكاد يغب ذلك ، حتى في أيام الصوم ، وقد وقعت له غريبة مع طبيب اجنبي ، وذلك ان الطبيب امعن في وجهه يوما وقال للحاكي ان الخليفة لا ينبغي له ان يصوم في هذه السنة ، فحملنا ذلك على انه لا يحب مظاهر الدين ، ثم ان الخليفة كان في الصيد يوما وهو صائم - كما احسب انه ذكر به الحكاية - فاذا به متأثر حتى دخل منه فأغمى عليه فعالجه الطبيب فقال وقع ما كنت اتخوف منه ، وذلك انني رأيت له لونا يدل على الكباد أي داء الكبد ، وهذا الداء يهيجه العطش ان اشتد على صاحبه ، وبذلك وقع ما وقع فعالجه ما شاء الله ، وذكر يوما آخر ان هذا الطبيب او غيره كان عالج جارية نفساء عزيزة عند الخليفة ، فلم ينجع ما يصنعه بها حتى حاول الشق ، فقال اما الولد واما

الام ، فجاءت امرأة في الدار فنجحت في الولادة بكل لطف فتعجب الطبيب وقال ان هذا لغريب من مثل هذه المرأة ، أقول حكى مولاي مبارك العلوي المراكشي انه شاهد صبية في رأسه جرب فحاولت طبيبة ان تبرئه فلم تنجح ، فجاءت امرأة بدوية بقطران وشيء آخر فبرىء بها فتعجبت الطبيبة فتعلمت منهـــا ذلـــك الـــدواء .

قال وكان المولى في خلافته في حين مهتبلا بغرس بستان (ضهر لكيطار) وراء جبل (تغليز) ، فكنا نظل فيه معه ما شاء الله .

وكان دائما يصفه بعلو الاخلاق وبالحفظ على المروءة وعلى العفة في كل حين ، فقلت له سامحني ان أباحثك ، فانني سمعت كثيرا من طبقات الناس ترمي السلطان بضد ذلك في (مراكش) وفي (فاس) ، وفي ذلك حكايـــات يحكيها كل واحد ، وهي في الكثرة بحيث يصعب ردها ، وان كان الاختـــلاف فانما يكون في بعضها لا في كلها ، وأقرب حكاية عندي ان بعض ابناء وزرائه من الفاسيين حكى لي ان والده وهو لسان صدق في شيعته ، كان يحكي انه دخل مرة في رمضان على السلطان في (فاس) ، فوجده في وسط النهار يأكـل ويشرب ، قال ، فقال السلطان حسبك انت أن تامرنا وتنهانا في خطبـــك - وكان الحاكي قد يخطب أحيانا - فهذه الحكاية رواها لي من لا أتهمه عـمن لا أتهمه ايضا، فقال يا فلان أحب منك ان تنصفني وان تتحقق بأنني دائما اذكر مما أراه من عيوب المولى عبد الحفيظ ما اذكر ، ككونه بعد دخول (فاس) خائر العزيمة اذنا لكل قائل ، حتى كنت احيانـا أتردد فيه اهو الذي كنت اعرفه أم غيره ، وقبل ذلك يجب عليك ان تعرف حق المعرفة ان دار هؤلاء الشرفاء لا يدرك منتهى تعصب أهلها للفضائل الا من كان رآها ، فقد كانت النساء وعبيد البخاري ، وهم الذين لا يفارقهم السلطان طرفة عين ، كفقراء الزوايا تعنتـا في الديانات ، فاما الصلاة والمحافظة عليها والاوراد ودليل الخيرات فقل ان تجد من لا يشتغل بها ، حتى ان من لم يكن مهتبلا بها بقلبه لا بد ان يهتبـل بها بظاهر لئلا يسقط في اعين من حواليه ، قال ويا ليتك تطل على نساء دار

المخزن بـ (فاس) و (مكناس) و (مراكش) عند السحر لترى عجبا ، فكلهن ولا أستثني منهن ولو واحدة لا يمكن ان ينمن في السحر ، بل يقمن كلهن الـى الوضوء ثم يستقبلن هياضيرهن ينتظرن الاذان ، وهذا أمر صار عندنا نحن ضروريا ـ أقول اننا قرأنا من مقالة للباحث العلامة ابن زيدان مثل هذا بعينه فأذكر انني ذكرتها الحاكي فقال ان هذا ليس بغريب الا عمن يجهل ما هناك ـ قال فان كان هذا في الصباح ، فكيف ترى في غير ذلك الوقت ، ثم ان الصلاة أمر تقوم على غريزة العادة لمن ألفها ، ولذلك لا بد ان تسلم معي بان النسـاء اللائي تربين في عصر مولاي عبد الرحمن وانت تعرف من هو ، ثم في عصر ولده محمد الفقير الصوفي الكنتي لمن عرفه حق المعرفة ، ثم في عصر المولى الحسن ولا يكاد يجهل قيامه بالدين أحد ، لا يمكن ان يكن الا كذلك ، ثم ان هناك الوعظ والتربية والعريفات المتعصبات الى الغاية،والفضائل عندهن صارت عادة متوارثة،وياويل من يخرم العادات في دار المخزن،هكذا ننظر الى الدين والى محبة الفضيلة ، ثم اهل دار الانسان لا يتبعون غيره ، فاذ كان المولى محمـد بن عبد الله ثم مولاي سليمان ثم مولاي عبد الرحمن ثم ولده ثم حفيده على ما تعرفه ، فلا يجب ان تكون أهاليهم كذلك ، وبعد ما تسلم هذا وتعلم معه ان العبيد أيضا ممعنون هكـذا في هذه الناحية الـى الغاية ، فعهدنا بالعبيد ، لا يفارقون الدلائل او المصاحف لمن حفظ القرآن،فكلما وجدوا فراغا وهم جالسون في دكاكينهم او مصاطبهم يتلون الصلوات او الآيات ، يتفاخرون بذلك ، فبين تلك النساء وبين أولئك العبيد وفي بيته المولى الحسن شب المولى عبـد الحفيظ ثم عاش فيها ، فهل يمكن ان يتظاهر عما قاله الفاسي بأكل رمضـان نهارا الا ان كـان له عذر يعرفه من حواليه ، لا واللـه ان غير هذا لا يمكن ان يكون الا أفكا وأثرا لتلك الدعاية التي يقولها فيه العزيزيون وأمثالهم ممن أوى الى ظله ثم لم يشكر نعمته .

قد نقول انه لا يتقي الله ، ولكن ذلك في الباطن ، وقد نقول انه ينتهك حرمة رمضان ولكن يصنع ذلك حيث لا يطلع عليه لئلا يسقط من العيون ، واما

أن يفعل ذلك وسط أهله وهم من عرفنا وبين اعوانه وعبيده وما منهم الا من له ديني خرافي أقل ما يرمي به من خالف ما يعرفه من الدين هو الكفر الصراح، فان ذلك لعمري لا يقبله ذو عقل ، اللهم الا اذا قبل ذو عقل ان يعمد شيـــخ زاوية فيأكل وسط رمضان في وســـــط مريديه ، ثم يريد منهم بعد ذلك ان يحترموه ، وذلك لا يقبله الا عقل من يظن ان كل من كان ملكا فانه حرفي ان يفعل ما يشاء ، وذلك هو الوهم المتراكم بعضه على بعض طبقا عن طبق .

قال ثم ما الذي يدعو الانسان الى هتك العفة الا احد امرين : أحدهما ان يتربى في بيئة الفساد فيشب وقد خرجت ارادته من يده فيقع في المخجلات مريدا او غير مريد ، وثانيهما ان تقع عينه على جمال رائع لا يجد له نظيرا ، ثم لا تكون له مطامع يخاف ان تفوته بتتبع ذلك ، فيغرق الى اذنيه ، والمولى عبد الحفيظ قد رأينا بيئته التي تربى فيها ولا يجهلها كل مطلع ، كما علمنا وتحققنا ان تحت يده من الحسن البارع ما ينسيه غيره أيا كان ، ثم هو مع ذلك له مطامع لا يمكن ان يضحي بها في سبيل شهواته البهيمية ، وكثيرا ما نرى متصلحا يتظاهر بالصلاح مع انه تربى في بيئة الفساد وصلى وصام لامر يدركه ، فكيف بمثل المولى هذا مع انه لم يترب الا في بيئة صالحـــة الى الغاية لا يشك فيها الا الجاهل ، والجاهل لا كلام معه .

اقول بمثل هذه الحجج المنظمة دافع مرارا كثيرة عن هذه النقطة ، وينسب الدعاية بها للعزيزيين ولبعض من أوى الى ظل المولى عبد الحفيظ ثم انكر منته فيقول ما شاء ، ويسميهم .

وكثيرا ما يطنب في الذي كان يسود الهيأة الاجتماعية قبل ان يطلع العصر الحديث اي قبل ان يتوفى احمد ، فيقول ان الخمر غير معروف أصلا حتى عند المتهتكين الا قليلا جدا جدا ، ولا يوجد الا في الملاح ، ولم أسمع قط في صغري ان فلانا يسكر الا واحدا بـ (مراكش) سماه ، واما في دار المخزن فحاشـــا وكـــلا وألـــف كـــلا .

أقول ذاكرت مرة صاحبي محمد الغازي كما اظن في هذه النقطة ، فقال اننى بحثت فيها كثيرا ، ولم يتحقق عندي في (فاس) الا ان فلانة طلعت لدار المخزن باذن رسمي ، وعرفت سبب ذلك ، وان ذلك على غير ما يظنه الناس ، قال وأرى ان قضيتها وحدها هي السبب حتى شاع ما شاع ضد المولى عبد الحفيظ ، أحسب ان هذه المداولة وقعت بيني وبين المذكور ، او مع غيره من الباحثين المتثبتين .

وأقول انني اميل كثيرا جدا الى براءة السلطان من هذه الناحية ، لان ما رأيته من الاهتبال بالعلم اهتبالا كثيرا فيه نوع دعاية لمركزه ، أفيمكن ان يبني في جهة ويهدم بترك العفة في جهة اخرى ؟ وجماع ما هناك ان منو يبرئه تبرئة تامة ، وأحسبه لو اطلع منه على شيء لصرح به ، لانني أراه يصرح بأكثر من ذلك .

قال ان المقيم ليوطي عزم أخيرا على السلطان ان يبقى في مركزه ، واذا ضاق به الحال ، فليجل في العالم كما شاء على نفقة الحكومة ، وليستنب من شاء،وألح عليه في ذلك غير ان السلطان المجروح الارادة تابى من ذلك فولى وجهه في شعبان 1330 هـ الى (الرباط) بعد ما عين صنوه المولى يوسف ، فركب البحر الى (طنجة) ، قال وبعد ان أقلته الباخرة تناول طابعه الخاص فالقاه في البحر ، فكان ذلك منتهى امره ولا يبقى الا الله وحده .

فقد كان المولى عبد الحفيظ رجلا كبيرا لكنه غير محظوظ لانه لم يجد شعبا حيا والسلام .

محدثنا ينفى الى مكناس سنوات

قال سلمت الامر منذ رجعنا من (ثـليز) ، ثم لم يكن لي هم الا انقـاذ خيل كثيرة من الهشتوكيين اظنه ذكر انها نحو مائة ، وكانوا اعجلهم النهار عن الخروج ، وأيـدي النهاب من المتـوكـيين والاكلاويين تنهب كـل احـد ، فاختبأوا في حوش عندي كل ذلك النهار ، وفي أثنائه استدعيت الفقيه الحاج الحبيب الصوابي اليوم فطلعت معه الى علية مشرفة على (مراكش) وقـد هدأت الحالة بسرعة فقلت له أرأيت كيف السياسة ، فهؤلاء مع كفرهم قد ساد الامر بهم ، وذهب ذلك النهب والخطف اللذان سادا أيام الهيبة ، وفي الليل فتحت لهم بابا فخرجوا بعد ما زودتهـم واركبت راجلهم خيلا وبغالا ، ومكنت أعزلهم من السلاح فتوجهوا وجهة (وادي النفيس) فنجوا ولم يضرهم أحد .

قال ثم ان مولاي المصطفى تعين ايضا قاضيا ، كما تمكن الباشا الحاج التهامي ، وبعد نحو شهر بلغني رسول صاحبته الى دار الباشا ، فأمر بي الى بيت فعلمت انه قضى كل شيء ، فدخل علي الحاج التهامي متلطفا ومبكتا أخاه المدني ومسندا اليه السعي ضدي ، ثم جاء من تسلمني من هناك فسير بي وسط حرس الى (مكناس) ، وكان يفصل كل ما مر به في هذا السفر ، لان معه بعض اصحابه ، ثم لما وصل (مكناس) امر بملازمتها من غير سجن ، غير ان الباشا امر بملاحظتي ففرحت لانني كنت السبب قبل سنة او سنتين في توليتـه هناك ، فقلت انه سيكون لي خير معوان ، غير ان النفوس الخبيثة ابت ان تخرج من الدنيا حتى تسيء لمن احسن اليها ، فقد كان يلزمني بأعوان له ، فلا

أكاد امشي في زقاق الا طافوا بي ، ثم حاول ان يخرجني من دار نزلت فيها تضييقا بي لا غير ، فلم اتحمل كل هذا ، فذهبت الى المراقب فاذهبت اليه ما انا فيه ، فقلت ان كانت اوامر الحكومة جاءت عني هكذا فليس عندي ما اقول، والا فأنا رجل لي مال خاص اريد ان اكتري دارا توافقني ومعي من يخدمني ، وأريد أن أتريض كما اشاء ، فقال اننا لم نتلق عنك الا ان تسكن هنا فقط ، ولك ان تتريض كما تشاء ، وأما الدار فلا بد لك منها ، فاستدعى الباشا فوبخه ، فاكتريت تلك الدار نفسها وكانت حسنة ، ففرشتها فراشا جيدا ، فصرت أتلقى ما احتاج اليه من أهلي ، ولم يهمني الا والدتي فقط ، فكنت هناك في حرية حسنة ، أتنزه مع أناس فنخرج بالطنجيات الى البساتين ، فليس للباشا بعد ذلك النهار علي الا المراقبة من بعيد ، ثم جاء القائد عبد الرحمن الكلولي الحاحي ، وقد نفي ايضا الى (مكناس) ، فنزل عندي حتى هيأ محله ، ثم ذكر من سوء اخلاقه وبخله وقبح صنعه بأصحابه عجبا ، قال ثم انني بعد ما علمت ان كثيرا من مناعي العالي قد نهبه الانكلاويون حين دخلوا الى داري بحجة التفتيش عن السلاح واستخراج ما كان فيها منه ، فذكر من بين ما نهب له 22 صينية مفضضة وما تحتاج اليه من ربعات ومقاريج ، بله غيرها من كل ماعون نفيس وأثاث وما الى ذلك ، وقد حملت مكتبتي التي هي صوان لكل ما عندي من الرسائل الرسمية وغيرها ، ومن بينها رسائل (ألمانيا) الرسمية بيني وبين سفرائهم ، فذهبت في ذلك نفائس من الرسائل التاريخية ، وقد وصل ذلك كما هو الى (الرباط) ، قال فاخبرني مخبر رآى ان كل تلك الاوراق قلبت كلها حتى عرف ما تحتوي عليه بتفصيل ، ثم امتد النهب الى الاراضي والبساتين ، فغلب اصحابي في (مراكش) ، فلم يمكن لهم الا ان يبلغوني الاخبار ، فكنت ارسل الى (الرباط) شاكيا ، فجاءني جواب يوما بأن كل ما كان لي لا يمكن ان يفرط فيه ، أحسبه قال كذلك ، غير ان الحقيقة ان كل ما نهب لي لم يقر به الناهبون ، وهم المصدقون .

ثم ذكر انه بقي هناك نحو اربع سنوات كما أحسب انه ذكره ، ثم كتب رسالة الى المقيم العام متشكيا من فراق امه ، قال وفي يوم دخل المقيم

(مكناس) ، نتعرض له رسميا بحفلة كبرى ، فكان يمر بالصفوف حتى وصلني ، فقال أما أنت فلم تكن تستحق الا قطع رأسك ، ولكن الحكومة ذات حلم ، ثم اطلقت من النفي ، فرجعت الى (زطاط) ساكنا حيث أقرب من والدتي ، ثم لم يسامح لي بالرجوع الى (مراكش) الا بعد حين .

صفحة تاريخية سرية الى الغاية

كان أفضى الي باعمال سرية كان قام بها اثر انطلاقه من النفي ، ولخوف ان يفلت ذلك من التاريخ حرصت على تسطيرها هنا ، ولعل وقت الخوف من جريرة ذلك ينقضي شيئا فشيئا ، ولتعويلي على عدم نشر الكتاب الآن ، ولا ان يطلع عليه من يولعون بنقل الاخبار الى المسامع ، عولت على ايداعها هنا خوف ان لا تسنح فرصة اخرى فيجهل ذلك في التاريخ المغربي ، والله المسؤول ان يبقى هذا سرا مصونا حتى ينطوي حياة اصحابه ، وقد اوشك ان يكون ذلك .

قال : كان المولى عبد الحفيظ أيام الحرب الكبرى لعب دورا خطيرا في (المغرب) ، وذلك انه اتصل بحلفائه الالمانيين ، فاتصل بمحمد بن حمو الزياني وأمثاله في الجبال ، فكان يسرب اليهم الاموال الضخمة ، كمائة الف ريال ومثل ذلك ، قال وكان حاملوا الرسائل والاوراق البنكية يعتمدون علي فارشدهم الى الطرق المأمونة ، وكانوا يحترفون بحرف لا يؤبه بهم معها ، كان يشتغلوا بنقل الحطب او الفحم ان قاربوا مدينة ، فيحمل حمارهم حطبا او فحما ولو فتش مفتش برذعته لرآى فيها اسرارا او اموالا هائلة ورسائل ، قال والعجب انهم كانو غالبا ذوي امانة وثقة ، فيذهبون ويرجعون بتلك الآلاف من غير أن تحدثهم انفسهم بان يحتجنوها فينكروها فياوون الى بعض المدن ، ولا يقدر مرسلوهم على ان يسالوهم ، واعجب واغرب انهم

ليسوا بأغنياء ، قال ولم أعرف منهم خائنا الا فلانا وسماه ، كذلك احسب انه يحكى . قال وبينما أنا جالس يوما اذ دخل بعض هؤلاء الى الزقاق الذي أنا فيه ، وقد تزيا بلباس حضري رقيق ، ورسائل من رسائل (ألمانيا) في جيبه ، ولرقة الثياب استبنت الطابع فوقها كما أعرفه فبادرت اليه فأمرته بالدخول ، فقلت له لقد اهلكتنا من حيث لا تشعر ، قال وقد ذهبت في ذلك اموال طائلة من يد المولى عبد الحفيظ ، وحاول بكل ما في امكانه ان ينظم في (المغرب) ثورة عامة ضد المحتلين ، غير ان ذلك لم يتم لجهل المغاربة بالفنون الحربية ، ولما ينبغي فعله ان اراد النجاح ، ولذلك ذهبت تلك الأعمال ادراج الرياح ، فكان ذلك آخر ما عمله المولى عبد الحفيظ ، أقول : ولعل ما كان يزاوله من هذه الاعمال هي التي تسببت حتى هرب من (طنجة) الى (اسبانيا) ، كما كانت ايضا آخر محاولات الباشا ، كذلك مضت تلك الصفحة المغربية من غير ان تظهر اعمالها للوجود .

خاتمة

وبعد فقد كان الرجل حقيقة منبعا ثرارا بالاخبار ، وكان من الصراحة في مكانة ، وطالما قال عن نفسه ما لا يقدر غيره ان يقوله عن نفسه ، ونرى انه لسان صدق في كل ما يقول ، ولو كنا تمكنا في ان نكتب عن لسانه مباشرة مفصلين الوقائع برجالها وتواريخها ، لكان لما نكتبه شأن اعلى مما هو له ، وهو رجل ابي وطني غيور ، من آخر طراز ، مع محافظته على الاخلاق المخزنية القديمة ، وكان حسن المعاشرة الى الغاية القصوى ، سالكا في معاشه وفي اخلاقه وفي ملاقاته طريقة الحشمة ، وكان في ذات يده متوسطا في الاقتصاد ، وقد شيد روضا اريضا بعد رجوعه ، صرف عليه مالا كثيرا لا يقل عن عشرين الف ريال حسني ، ثم اثثه احسن أثاث ، وكانت اراضيه المقطعة له من السلطان تكنيه نفقة ، وله من علو الهمة المخزنية القديمة عجائب ،

فانه لا يرضى ان يتفقد بنفسه ممتلكاته ، مكتفيا باصحابه ، وقد شاد مع الحسن التبر الفاسي القيسارية المشهورة في (السمارين) ب (مراكش) ، فلم ينفق عليها قط مكتفيا بالمذكور ، حتى ذكر انه حاك حوله فيها ما حاك ، ولم يرزق من الاولاد الا بنتا لا غير ، ثم طلب من المولى يوسف أن يقترن بها احد ابناء المولى عبد الحفيظ ، محبة له في سلطانه ، فصدر الاذن بذلك فاوى اليه المولى الحسن الذي ذكرناه في طليعة هذا الكتاب ، واكبر ما يعجبني من الرجل من خصاله ، انه يشهد لمثل الحاج التهامي بالرجولة والبسالة مع انه كان بينهما ما كان ، حتى انني لم أعرف الحاج التهامي في اخلاقه الا به ، وانه محافظ على المروءة مع من يحتشم منه ، فقد صاحبته زهاء ست سنوات ، فكانت علاقاته معي دائما كما هي من اول يوم ثم لم ازره الا ان استدعاني ، وكان مع ضده للخرافات يتمشى عليه بعضها لسلامة طويته ، وكان ضد الخرافات كلها ، وكان يقيم دائما الغداء بطاجينين وما اليهما ، فيحضر عنده اناس معهودون لا غير ، وتلك عادة مخزنية قديمة ، ولم نكن نشتغل الا بالاخبار مثل هذه او بالدينيات ، وكان مولعا بالجرائد وبآخر اخبارها ، وببركة ذلك الغداء مد هذا السماط للقراء ، فهل يشكرون ؟

ذلك ما اعرفه من الرجل ، ولم أكن انتصل به الا ذلك الوقت متى كانت لي فسحة او كان ايضا حاضرا ب (مراكش) ولم يكن ب (زطاط) التي يمضي فيها مثل ما يمضيه في (مراكش) ، ولم أكن اعرف منه غير ذلك ، لان من عادتي ان لا انقب عما ستزعني ، والحمد لله على ذلك ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

أوائل 1358 هـ .

فهرس الكتاب

طبع على نفقة واشراف أبناء المؤلف

مطبعة الساحل ـ الرباط ـ الهاتف : 42ـ334